تربية الأبناء
فى الزمن الصعب

د. بينجامين سبوك
تحرير: منير عامر
تصدير: د. أحمد عكاشة

لوجو
الهيئة

الهيئة العامة
لقصور الثقافة

سلسلة
الإصدارات الخاصة
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• تربية الأبناء في الزمن الصعب
• د.بنجامين سبوك
وتحرير: منير عامر
• الطبعة الثانية
الهيئة العامة لقصور الثقافة
184ص القاهرة - 2010م
16ر5 × 23ر5 سم
• تصميم الغلاف: أحمد الجناينى
• المراجعة اللغوية:
محمد أحمد عبدالمطلب
• رقم الإيداع: ٥٦٨٤/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 978-977-479-974-0
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

77

تعنى بنشر الأعمال الفكرية والثقافية والأعمال الخاصة لأبرز الكتاب فى مصر والعالم

• هيئة التحرير •
رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
د. أحمد مجاهد
مدير التحرير
عماد مطاوع

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف في المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

تربية الأبناء
فى الزمن الصعب

المحتوى

- تـصـديـر 7
- مـقـدمـة 11
- أنت القائد لمستقبل ابنك رغم أنفك 15
- الطفل الناضج عاطفيا هو الذي يولد من زواج حلال 21
- لا تجعل أكتاف الطفل ملعبا تلهو فيه بكرة القلق الزائد..... 29
- الصداقة مع الأبناء حق طبيعي للأبناء فهل يعرف الآباء ذلك؟ 37
- لعبة "عروسة وعريس" يلعبها الأطفال ويفضلها الكبار 45
- سوء الاستخدام العاطفي للأبناء 51
- عالم من الأسئلة الحرجة جدا 59
- لا داعي للرحيل خارج المنزل..... 67
- "خذ قلبي واعطني ابتسامتك" 75
- سيمفونية رائعة اسمها.. تعليم الابن فن الحب 83
- نعم، الطفل يتمرد احتجاجا على الأوامر المتضاربة 91
- أنت قائد صارم أيها الأب، وعليك أن تكون كذلك 99
- أخطاء ابنك عندما تشبه أخطاءك .. لماذا تنزعج؟ 107
- لا تيأس أبدا وأنت تعامل ابنك: هذا هو دستور التربية الصحيح 115
- إبنك يعيد تربيتك مرة أخري 121
- هل من الصعب أن تعلم الطفل الكرم مع الآخرين 127

– متى يقول الطفل أول الكلمات الجميلة 133
– هل تدفع أجراً لابنك عندما يساعدك في أعمال البيت ؟ 139
– متى نبدأ في تعليم الطفل كيف يكون مسئولاً عن نفسه وأسرته أيضا؟ 145
– فساد الأطفال يبدأ من انفصال أحاسيس الكبار عن أفعالهم 153
– حتى لا تضرب رأسك في حائط الإحساس بالوحدة 159
– حتى لا تحول ابنك من إمبراطور إلى ضفدعة 167
– لا تخف من الحزم والقليل من القسوة في معاملتك لأولادك 175

تصديـــر

تعتمد سعادة الإنسان ورضاه عن نفسه على مدى تكيف الشخصية ودرجة مرونتها مع أحداث الحياة. إن بعض سمات الشخصية يورث، والبعض الآخر منها يكتسب من خلال الأسرة والبيئة.

ويؤسفنى القول أن ثقافة الإنسان العربى النفسية تجعله غير متمكن من تنشئة أولاده بصورة سوية مرنة لأحداث الحياة.

ولذلك، فالزواج والإنجاب مسئولية كبيرة، لا فى إعالة الأسرة وتأمينها ماديًا فحسب، بل من خلال بناء شخصية تسعد فى هذه الحياة. ويعتمد ذلك فى الدرجة الأولى، على العلاقة الثلاثية بين الأب والأم والابن أو الابنة.

إن هذا الكتاب يملأ فراغًا كبيرًا فى المكتبة العربية. ولست أبالغ فى هذا القول.. إن نظرته الموضوعية العملية وحفاظه على التقاليد والأسس الدينية تجعل نظيره فى اللغات الأجنبية نادرًا.

لقد جمع هذا الكتاب بين الأصالة والتحديث، بين العلم والواقع، بين الصحة النفسية والحرص النفسى فى أسس تنشئة أولادنا فى أثناء طفولتهم، ومراهقاتهم، ونضوجهم.

وإنى أهيب بالآباء والأمهات بقراءته، فهو يعكس المشاكل اليومية التى تواجههم، ويضع أمامهم الطرق النفسية السوية المبنية على أسس علمية فى معالجة وبناء شخصيات

الأبناء، دون الحاجة إلى محترفِى السلوك الإنسانى.

إن الكاتب منير عامر، فى إعداده لهذا الكتاب، احتاج لجهد كبير فى الترجمة والفهم والاقتباس وإعادة الصياغة، وفى التطبيق العملى على الواقع العربى، مستنداً فى ذلك كله إلى أرضية عميقة فى فهم النفس البشرية والعلاقات بين الناس.

د. أحمد عكاشة(*)

(*) أستاذ الطب النفسى، أمين عام الجمعية العالمية للطب النفسى.

مقدمـــة

رحلة بناء جهاز القيم والمثل العليا
فى كل أسرة

ليس سهلاً أن تربى طفلاً فى زماننا المشحون بالتوتُّر وضيق الوقت واللهُّاث وراء المستوى الأفضل للحياة.

لكنه ليس صعبًا كذلك أن تربى طفلاً مهما كانت الظروف المحدقة قاسية.

ولأن الشرق والغرب صارا أصحاب حضارة واحدة، هى حضارة الضجيج والسرعة، واقتحام أصعب المشاكل، والوقوف بحيرة بالغة أمام أبسط المشاكل.. فلماذا لا نحاول اقتحام مشكلة بسيطة انتصر عليها كل من سبقنا إلى الوجود؟ لماذا لا نحاول أن نفهم كيف نربى أبناءنا فى هذا الزمن الصعب؟

منيـــر عامـــر

أنت القائد لمستقبل ابنك رغم أنفك !!

عن الحب من كل اتجاه حتى صار الحب وحشًا أسطوريًا يحاصرنا ولا نعرف الخروج من دائرة الحصار.

لكن كل شئ صار كالمصيدة.. واجهات العرض.. السلع.. الوظائف.. نظرة النساء للرجال.. نظرة الرجال للنساء.

والكل يهرب من الكل.

والصباح يشهد رحلة هرب مثيرة فى كل أسرة.

الأب يهرب إلى العمل، فهناك لن يكون الحديث عن المسئوليات وستكون النساء فى مجال العمل أجمل من الزوجة وأكثر رقة منها، وستكون الحكايات منطلقة وبلا أسوار.. ومادام الإنسان يحيا فى دائرة العلاقة الاجتماعية من دون مسئوليات فهو أكثر سعادة.

والأم تقف أمام المرآة قبل أن تخرج إلى عملها فى الصباح وتضع على وجهها وجسدها قناعًا آخر غير قناع الإرهاق البادى فى وجه الزوج المكتئب وصرخات الأطفال تلاحقها بالمطالب التى لا تنتهى.. إنها ستلتقى بأصحابها من الرجال والنساء.

والأبناء يخرج كل واحد منهم من المنزل، كأنه يخرج من قفص حديدى هو أوامر الأب والأم إلى غابة هى الشارع أو المدرسة أو الجامعة.

هذه هى ساعة الحياة المعاصرة، إنها غابة ذات تقدم إلكترونى.. السيارات مسرعة

كأنها أفاعٍ من حديد، والابتسامات متصارعة كأنها أنياب لخراتيت متصارعة. وكل شئ له منطق الغابة.

ولأن الحب يحاصر الإنسان فى كل اتجاه فهو محور الأحاديث والقصص والأفلام ومادة الأوهام، فالإنسان يصدق هذا الوهم الذى لا يمارسه أحد: وهم الحب.. فيتزوج، وغالبًا ما ينتفخ بطن الزوجة بعد شهور من الزواج، ليأتى الابن إلى الحياة. ومع ميلاد الابن يبدأ السؤال الصعب:

كيف نربى هذا الابن؟

إننا لا نفهم سبب صرخاته أو ابتساماته أو حركاته أو احتياجاته.

وغالبًا ما يكون تصرف الأب والأم واحدًا من موقفين: الموقف الأول هو الحزم المتسم بلون من القسوة، تلك القسوة النابعة من الخوف الشديد من الصغير المولود وكذلك الخوف عليه من أن يتعود الحصول على كل ما يريد بسهولة تجعل الأبوين أداة تعمل على تحقيق مطالبه حتى يفقد الأبوان السيطرة عليه.

والموقف الثانى هو التساهل المتسم بلون من التدليل المبالغ فيه، النابع من تذكر كيف كان والد الزوج أو الزوجة قاسيًا، ولا يُحِبُّ أىٌّ من الوالدين أن يحدث لصغيرهما ما حدث لهما.

والحقيقة أن كلاً من الموقفين موقف خاطئ. ولكن الخطأ يتسرب إلى أدق المواقف. منها على سبيل المثال أسلوب تغذية الطفل، فالأم تكون صارمة بحيث تنظم له مواعيد الغذاء دون فهم لطبيعته الخاصة. والأب قد يكون صارمًا مع الابن فلا يحتضنه إلا يوم الإجازة الأسبوعية.

والخطأ فى التدليل يتسرب كذلك إلى أدق التفاصيل، فكل سؤال للطفل له جوابه الذى يراه الأبوان وطريقة توضيحه؛ فلا يعرف الطفل أبدًا القدرة على التمييز. تلك القدرة التى يطلبها المجتمع من الطفل.

إن الطفل فى حالة القسوة من الأب والأم قد يخرج إلى العالم وهو ذلك الإنسان القاسى، صاحب القلب الذى لا رحمة فيه وصاحب المواقف الصارمة، والذى يقيس كل شئ بميزان لا يعرف الحنان.

والطفل فى حالة التدليل المبالغ فيه يخرج إلى العالم والدنيا عنده "سداح مداح".. النجاح فيهما كالفشل والصدق كالكذب.

إذن ما هو الأسلوب الأسلم فى تربية الأبناء؟

إن الحقيقة الأولى التى يطلبها الأب والأم من الابن هى الحبّ والاحترام والتعاون. وهذه الحقيقة تصطدم بصخور، هى أن الأبناء يتصرفون بغلظة وعدم تقدير لمشاعر الأب أو الأم ولا يكفون عن طلب الأشياء لأنفسهم وكأن الآباء والأمهات هم مجرد خزائن للصرف المادى.

والحقيقة الثانية التى يطلبها الأب والأم من الابن هى أن يتصرف هذا الابن دائمًا على ضوء المثل العليا وباعتدال وتقدير، وتصطدم هذه الحقيقة بأن الأطفال من البدايات الأولى يتصرفون على ضوء المصلحة وبأسلوب الأنانية.

إذن.. كيف يكون الحل؟ وكيف ندير الرأس بتدبير تلقائى يجعل الأبناء يتصرفون على ضوء السلوك الحسن؟

المسألة ببساطة هى فى أن نعى حقيقة بديهية، هى أن الابن قد جاء ابنًا فى لحظة حب، وحتى الأزواج الذين يدعون أنهم لا يحبون زوجاتهم، وحتى الزوجات اللاتى يدعين أنهن يكرهن أزواجهن، هؤلاء وأولئك ينسون أن لحظة العناق التى أنجبت الطفل كانت لحظة رضى ولم تكن لحظة اغتصاب.

والحب هو القدرة على الرعاية. إنه ليس ذلك الجنون الذى يملأون به آذاننا فى الأغنيات. إنه أمر مختلف عن ضجيج المشاعر المتضاربة فى هذا الزمن المسعور بالجنس.

الحب هو القدرة على الرعاية. هذا هو المفهوم الحقيقى والواقعى الذى يجب أن يستقر فى ذهن الأب والأم والابن أيضًا.

إننا إذا اقتنعنا داخليًا بهذا المفهوم، فإن ما نقتنع به ينتقل بسرعة فائقة إلى أطفالنا.

إن الابن الذى يحس أن والده يرعاه بالنظرة الواثقة المعتدلة الهادئة هو الابن الذى يتصرف تجاه العالم باعتدال.

والابن الذى يحس أن أمه ترعاه دون أن تسمح له بممارسة الابتزاز أو السيطرة، هذا الطفل يستطيع أن يتعاون مع الأم وأن يتعامل فى المستقبل مع زوجته بنوع من التقدير العميق.

إن القدرة على الرعاية هى القاسم المشترك الأعظم فى أى علاقة ناجحة عاطفيًا؛ فالرجل عندما يحب زوجته يرعاها.. يتلمس رغباتها.. يضبط موجة مشاعره على موجة مشاعرها.. يعرف جيدًا أن لها عيوبًا ولها مميّزات، ويعرف جّيدًا أن له عيوبًا وأن له مميزات، فيصنع من عيوبه ومميزاتها نسيجًا عاطفيًا يتدثر به الإحساس بالوحدة، ويصنع

من مميزاته وعيوبها نسيجًا يحميها به من الضعف.

والمرأة عندما تحب زوجها فهى ترعاه: تتلمس ما يعجبه فى المرأة فتكتشفه فى أنوثتها، وترسل دائمًا لحن الانسجام من أعماقها إلى أعماقه. وتعرف أن له عيوبًا ولها مميزات، فتصنع من مميزاتها وعيوبه إحساسًا بأنها قادرة على حمايته من تلك العيوب. وتعرف أن له مميزات وأن لها عيوبًا وتنسج من مميزاته وعيوبها خيالاً يحميها من أى ضلال.

إن التعزيز العاطفى المتبادل بين الرجل والمرأة يتنقل إلى الطفل ليخرج معتدل المزاج سليم العاطفة.. متوازنًا فى إدارة أموره.

والتعزيز العاطفى المتبادل بين الرجل والمرأة يمثّل جدار الحماية الأوّل والأساسى للطفل.

ومن خلال قدرة الزوج على رعاية الزوجة.. ومن خلال قدرة الزوجة على رعاية الزوج تنمو لدى الاثنين طاقة من الثقة بالنفس لإدارة أمور الطفل.

إن الحب عندما نترجمه عمليًا يزرع فى أعمق الابن مُثلاً عليا قابلة للتطبيق.

إن زماننا قد فاجأنا جميعًا بقدر هائل من القسوة وسط التقدم المادى العنيف. فالعالم على قدر تقدمه صناعيًا يخشى إلى حد الاقتتال نضوب المواد الخام التى تعتمد عليها الصناعة.

والإنسان الذى اكتشف أن المتعة حق للرجل والمرأة معًا إنما احترف بيع الضلال فتخيل أن الغرق فى اللذة هو سبيل السعادة.

والإنسان الذى اكتشف قوانين النجاح فى التقدم العلمى دفع ضريبة ذلك التقدم بالمنافسة التى لا أخلاق فيها.

وباختصار، لقد فقد زماننا التقاليد التى تحمينا من أنفسنا حتى صرنا نرى بعضًا من بلدان العالم ينادى بإباحة المخدرات ويحمى الانحراف.

ولمواجهة ذلك لابد لنا أن نلتفت إلى تقوية الأسرة بتقوية قدرة الرجل والمرأة على اكتشاف كل منهما للآخر، وقدرتهما معًا على التفاعل مع الأبناء وإدارة أمور الحياة مع الأبناء بالمراقبة والشرح والتوجيه والتذكير والإرشاد والتشجيع، وعدم الموافقة على الخطأ وعدم التحرج من عقاب الابن إذا ما تكرر منه الخطأ.

إن كلاً من الأب والأم هو قائد فى ساحة تربية أبنائه، والقائد يدرّب جنوده عمليًا على أساليب الحياة بثقة واقتدار. وإذا كنا كآباء وأمهات نعيش فى موقف القيادة رغم أنوفنا، فمن اللائق أن نتعرف على مهام القيادة حتى نربّى فى أبنائنا القدرة على السيطرة على المشاكل بدلاً من أن يكونوا مجرد ضحايا للمشاكل.

الطفل الناضج عاطفيًا هو
الذى يولد من زواج حلال

ولأن الأطفال لا يولدون من فراغ، فلا بدّ لنا أن نناقش المناخ العام الذى ينشد فيه الرجل باتجاه امرأة ما، وتختبئ فيه المرأة فى صدر رجل ما، وينجبان طفلًا.

المناخ العام مكون من زمان ومكان.

وزماننا هو القرن العشرين الذى أطل علينا بزيادة رهيبة فى أرقام حوادث الطلاق. كما أنه الزمان الذى تتفشى فيه ظاهرة الهرب المستمر من الواقع باللجوء إلى تعاطى المخدرات.

إنه الزمان الذى انفجرت فيه موجات عداوات مكبوتة من الأبناء ضد الآباء ومن النساء ضد الرجال، لا بل ومن الأمهات ضد الأطفال ومن الآباء ضد الأبناء حتى صار جزءًا عاديًا ما نقرأ فى الصحف من بيع أب لأبنائه أو قتل أم لأطفالها، أو إطلاق الرصاص من مسدس من الابن على أمه أو أبيه.

وأما المكان، أى كرتنا الأرضية، فقد انتشرت فيه حضارة صناعية أفقدت كل السكان روح القرى الصغيرة، واستبدلتها بروح المدن الكبيرة.

وفى القرى الصغيرة نجد إطار الدين الذى يرفرف بالأمان، وبحساب نفسى ناتج عن ضمير حى فى كل إنسان. كما أننا نلقى إطاراً من القيم المقدسة التى تتطلب من كل إنسان واجبًا محدداً. هناك أيضًا الأسر الكبيرة العدد المكونة من الجد والجدة والأبناء

وزوجاتهم والبنات وأزواجهن؛ حيث ينشأ الأحفاد فى ظل هذه الرعاية المتعددة المشتركة من الكبار.

إن الأب يشترك مع العم ومع الخال ومع الجدّ فى تحمّل مسئولية الطفل الوليد،

والأم تشترك مع الخالة والعمة والجدة فى رعاية مسئولية الطفل الوليد.

وبذلك لا يوجد ضغط عنيف على الأب والأم فى تربية الطفل. إنهما يواجهان الطفل ومعهما رصيد تاريخى هو خبرة الكبار.

ثم إن الزواج فى المجتمعات التى تملك روح القرى الصغيرة أمر ضرورى؛ فليس هناك من يستطيع أن ينظر إلى امرأة باشتهاء، دون أن يقدم مع الرغبة قدرته على تحمل المسؤولية.

وليست هناك امرأة ترى فى قلبها رجلاً عاشقًا، دون أن تتميز بجدارتها فى مشاركته المسئولية.

إذن ليست هناك مواعيد علنية بين رجل وامرأة دون هدف الزواج، كما أننا لا نقع على منهج فى التعامل عندما يضعا اللذة وحدها هدفًا دون تحمل الطرفين للمسئولية.

لقد اختلف الأمر _أمر الزواج _فى السنوات الثلاثين الأخيرة اختلافًا تامًا؛ فقد تلاشت من على وجه كرتنا الأرضية روح القرية المتماسكة والآخذة بالدين والقيم.. فلقد امتد الرخاء الصناعى إلى أعماق كل فرد ونتج عن هذا الرخاء حالة غريبة من الجوع.

صار الجوع المادى فوق كل جوع آخر، فانشغل الرجل بالمال، وانشغلت المرأة بالمال، وصار كل من الرجل والمرأة يعانى من حالة جشع مادى وجوع عاطفى وخوف من تحمل المسئولية وشحذ كل الطاقات من أجل التنافس، حتى صار الرجال والنساء على السواء فى حالة من العيش يمكن وصف الإنسان فيها كأنه بلا وطن. إن الإنسان فى القرن العشرين يحمل جواز سفر ويتنقل كالعصفور من بلد إلى بلد، ومن مدينة إلى أخرى. وحيث يوجد المكسب والأجر المرتفع يوجد الرجال والنساء لا بهدف تكوين أسرة بالدرجة الأولى، ولكن بهدف المكسب المادى الوفير، ويلى ذلك تكوين الأسرة. هذا ولم تعد احتياجات الإنسان متوازنة من حيث أسلوب إشباعها. كما لم يعد واضحًا دور الفرد كرجل ودوره كامرأة.

إن الاثنين يرفعان شعار المساواة رغم اختلاف طبيعة تكوين كل منهما، وكل من الرجل والمرأة على استعداد لتغيير التخصص المهنى، وتغيير المنزل أو البلد من أجل المكسب المادى؛ فنحن نسمع عن مهندس أو طبيب شاب يتحول عن مهنته ليعمل سائقًا

للتاكسى، كما نرى امرأة صارت تهوى، بل تمارس، العمل فى استخراج البترول وسط الصحارى.

إن هذا التشتت الإنسانى فى البلاد سعيًا وراء المال، يجعل كلاً من الرجل والمرأة كائنًا بلا جذور حيث وجد، ويجعل التنافر مع المجتمع عالى الصوت، ويزيد فى الطين بلّة أن سلطان الدين يتلاشى فى نفوس الأفراد.. هذا السلطان الذى يعطى الإنسان إحساسًا يجعل منه إنسانًا متوازنًا بين الهدف والواجب.

لقد أصبح الزواج مسؤولية صعبة يهرب منها الناضجون جسديًا واقتصاديًا. كما غدا بالنسبة لأعداد كبيرة من الشبان سجنًا يسلب الإنسان حريته.

وصارت المرأة، وهى تطلب العلم والعمل، تملك نظرة مضطربة إلى دورها فى الحياة. إنها تريد التقدم العلمى والدخل الاقتصادى والحفاظ على مستوى جمالى مرتفع دائمًا. والأمومة قد تعيق كل ذلك.

وعن مستقبل الأسر نجد الآراء تختلف. فها هو "إلفين توفلر"، مؤلف كتاب "صدمة المستقبل" يعلن: "إن الأسرة فى المستقبل ستتكون من رجل وامرأة يتزوجان لعدد محدّد من السنوات .. وسينصّ عقد الزواج على عدد الأطفال الذين ينجبهم الاثنان وكيفية إدارة مستقبلهم، وعند نهاية العقد ينظر كلا الزوجين فى أمره، هل يجدّد العقد مرّة أخرى أم لا"!

وها هى "شيرلى ماكلين"، الممثلة المشهورة ذات السمعة الطيبة تقول: "إننى أشك فى أن أية علاقة عاطفية يمكنها أن تستمر لفترة أكثر من خمسة أعوام، وأرى أن الأطفال المعاصرين يولدون وفى أعماق كل منهم كائن مكبوت الإحساس من فرط احتياجه لأمه وأبيه. لكن الأم والأب منشغلان عن الابن بالسعى وراء المال".

وبطبيعة الحال لا توجد فى أى مجتمع إنسانى حضانة نموذجية تقدم البديل العاطفى للأم والأب.

وها هو "إريك سيجال"، مؤلف قصة "قصة حب" التى أثّرت فى الملايين لفرط رقتها.. ها هو يقول: "إن عصرنا ينكر الفوارق الأبدية بين الذكر والأنثى وفى هذا الإنكار لون من الدمار، وإننى أناشد كُلاً من الرجل والمرأة أن يضع علاقته العاطفية فى المقام الأوّل، وأن يستعمل خياله لتجديد هذه العلاقة العاطفية، ذلك أن الخيال يضفى لونًا من الرومانسية على الحياة، حتى إذا كان عصرنا واقعيًا خشنًا فلا يجب أن ندعه يقتل أحلى ما فينا: عواطفنا".

وهنا يمكننا أن نتساءل ..

هل الأسرة فى طريقها إلى الزوال كمؤسسة أُولى لتكوين المجتمع الإنسانى؟

بعض الكتاب وبعض المؤلفين يؤكدون هذا المعنى، ولكنى أرى أن الكون كله يقف ضد تدمير الأسرة.

إننا نرى حال الذين يعيشون من دون أسرة: إنها حال خراب نفسى.

ونرى أن العلم المعاصر، بعد دراسة كل أساليب التطور، عاد مرة أخرى راضخًا ليعلن أن الأسرة هى أساس الحياة الطبيعية.

ونرى المرأة بعد أن تتقدم علميًا إلى أرقى درجات التقدّم تنسحب من المكانة العلمية لتعلن على الملأ أن وضع الأم هو أرقى وضع بشرى بالنسبة للمرأة.

ونرى الرجل الذى انقضت سنوات عمره فى العلاقات العابرة يريد أخيرًا أن يشعر بأمان التعاطف بدلاً من تلك المصارعة البشعة التى يلعبها حتى يفجّر علاقة ما مع امرأة ما، ثم يدخل فى مصارعة أخرى من أجل أن يتحوّل عن تلك المرأة إلى أخرى.

لقد صار هناك إدراك عميق عند كل البشر بالحاجة القاهرة لوجود علاقة تعاطف بين الرجل والمرأة وأن يكون لهذه العلاقة محتوى فعّال من المسئوليات.

إن الزواج لم يخترعه أحد.. ولكنه وُجِدَ فى اللحظة التى وَجَدَ الإنسان نفسه على الأرض.

إنه الأسلوب الآدمى الذى يمكن أن يرتبط فيه الرجل بالمرأة وينشأ من خلاله الأطفال.

إننا نرى مقدار التعاسة الهائلة لدى الأطفال الذين لا يعرفون من هو والدهم، أو لا يعرفون من هى أمهم.

إن لدى كل طفل حاسّة عجيبة تُشعره بضرورة أن يكون له أم وأب.

وأى حديث عن الطلاق أمام الأطفال يثير الذعر فى نفوسهم، ويضع الطفل نفسه فى حالة إنذار واحتجاج، وإذا ما تم الطلاق فإن الطفل يتوسل إلى أبيه وإلى أمه حتى يعود كل منهما للآخر، وينمو مع الطفل إدراك الأبوين لمسئوليتهم عن توفير حد أدنى من الأمان العائلى لأطفالهم.

إن الشبان فى عصرنا قد يهربون لفترة من الزواج، ولكنهم يشعرون أن الاستمرار فى الهرب من الزواج لون من النقص فى شخصية الإنسان.

لذلك فالزواج، من حيث هو علاقة بين الرجل والمرأة، مسألة أساسية ومهمة للنضج العاطفى. أما ما ينشأ بعد ذلك من عقبات فأمرها سهل. ولا توجد مشكلة لا يمكن علاجها فى إطار مؤسَّسة الزواج.

إن الطفل الذى يولد وله أب وله أم يتميز بالنضج، أما الذى يولد محروماً من إطار الأسرة؛ فهو ينظر إلى الكون نظرة من يرغب فى تدمير العالم.

ولذلك فالزواج أمر يجب أن ننظر إليه كضرورة جديدة وقديمة. إنه ضرورة جديدة ليصون المستقبل، وضرورة قديمة لأنه قام بالفعل بصيانة الجنس البشرى من الفناء حتى الآن على الأقل!

لا تجعل أكتاف الطفل ملعباً

تلهو فيه بكُرة القلق الزائد

منذ اللحظة التى يخرج فيها الوليد من بطن أمه تبدأ السعادة الممتزجة بالشقاء.. سعادة تتلخص فى أن الإنسان أصبح أبًا أو أمًا، وشقاء يتلخص فى أن الإنسان أصبح يسبح فى محيط اسمه عالم الأبناء.

وعالم الأبناء صعب ومعقّد، وقد يبدو بسيطًا للآخرين، ولكنه بالنسبة للآباء عالم مثير تحيط به علامات استفهام كثيرة.

وأتحدَّاكم أن تعثروا لى على أمٍ واحدة لا تنشغل إلى حدّ القلق والمعاناة إذا ما أصاب ابنها الزكام، حتى ولو كان هذا الابن متزوجًا وله أبناء كبار!

وأتحداكم أن تعثروا لى على أب واحد لا ينشغل إلى حد القلق والمعاناة إذا أصاب ابنته المتزوجة بعض من الضيق. إنه يحاول أن يبحث عن الأسباب عند الزوج أو عند أهل الزوج أو عند أحفاده.

باختصار، فالسعادة تعانق الشقاء فى الموضوع الأساسى وهو علاقة الإنسان بأبنائه. يموج عقل الآباء والأمهات بطوفان من القلق المشوب بالرغبة فيما يختص بأبنائهم.

إننا منذ اللحظة الأولى لميلاد الطفل وحتى أن يبلغ من العمر مدى بعيداً ندور حوله، ونسأل عن صحته، ونهتم بطعامه، وننظر إلى حذائه هل هو لامع أم لا، وهل هذا الحذاء ضيق أم لا، وهل الملابس مريحة ولائقة ومناسبة للجو أم لا، وهل يتقن الابن عمله سواء

كان جالسًا فى المدرسة أم فى الجامعة، أو حتى إذا كان رجل أعمال يمارس التجارة.

ونبقى نحاول تحذير الابن من أخطار النيران، وأخطار التسمم، وأخطار السير فى الطرقات، وأخطار قيادة السيّارات.

إننى لا أنسى أبدًا كاتب المحكمة الذى أُحيل إلى التقاعد وكان فى التسعين من عمره وابنه أستاذ جامعى أحيل على المعاش. وكان الأب كاتب المحكمة ينتظر ابنه الأستاذ الجامعى المتقاعد وكأنه ينتظر طفلاً صغيرًا يخشى عليه عبور الطريق.

ولا أنسى أبدًا تلك الأم الطيبة التى ظلّت تبكى لمجرد أن ابنتها أصيبت فى أثناء الولادة بنزف بسيط، رغم أن هذه الابنة كانت تضع مولودها الثالث، وكانت تنزف بعد كل ولادة.

وعندما يسأل الأجداد سؤالاً بسيطًا واضحًا هو: لماذا نستمتع بأحفادنا ولا نصاب بالقلق عليهم مثلما نصاب بالقلق على أبنائنا؟!

أجيب بوضوح: إنك أيها الجد تنظر بالفخر والكبرياء لأن لك حفيدًا .. وتحس أن العمر صار مثمرًا. أما بالنسبة لمشاعرك نحو ابنك فالأمر مختلف. إنك تشعر أنك مسئول عن الابن من الألف إلى الياء، وليست هناك وسيلة سحرية تجعل الآباء لا ينشغلون على أبنائهم.

إنها مسئولية تولد فى قلب الأم والأب منذ لحظة ولادتهم.

ولكن لابد من قليل من الانتباه فإن على الآباء والأمهات أن يعرفوا أن للقلق حدودًا.. وأن للارتباك المشوب بالعشق حدودًا أيضًا.

إن علينا أن ندرب أنفسنا على هذا الإيمان العميق بالقرار الإلهى، وذلك أننا ضيوف فى هذا العالم نرد ونرحل ولا نقيم أبدًا، وأن أبناءنا هم هدايا لنا من السماء.

إننا بذلك الإيمان العميق ندرك برضى أننا لن نحيط بكل التفاصيل علمًا.

إننا نلاحظ أن معظم الأفراد الذين لا يؤمنون بالله هم أكثر الأفراد قلقًا على الأبناء. ولا أنسى تلك الأسرة التى يعلن الوالد والوالدة فيها عدم إيمانهما بالله ويعانيان من مخاوف غير طبيعية بالنسبة لابنتهما الوحيدة.

إن الأطفال فى الأسرة عديمة الإيمان ينشأون وهم يعانون من ضغوط اهتمام الآباء والأمهات بهم.

ولكن ليس معنى الإيمان بالسماء أن نهمل أبناءنا .. إنهم كمنحة سماوية تستحق الرعاية، والرعاية هى بعض من القلق وقليل من الارتباك، ثم الكثير من الثبات فى مواجهة أمور الحياة.

إن كل طفل ينمو، ويحب هذا النمو. فالطفل يرغب بشدة فى أن يكبر وأن يصبح مثل والديه، فهو يحب أبويه ويحترمهما، ولذلك يتمنى أن يصبح مثلهما.

وكلّما ازداد ثقل الاهتمام على أكتاف الأبناء ازداد خوفهم من الخطأ فى حق الآباء، وبالتالى فهم يخافون من النضج!

إن الطفل يتعثر فى إتقان أى عمل إذا ما شعر بضغوط من الانتباه الزائد من أمه وأبيه.

لذلك لابد من الآتى:

– انتبه أيها الأب وانتبهى أيتها الأم.. انتبها إلى ضرورة التقليل من المراقبة الصارمة للأطفال.

– انتبه أيها الأب وانتبهى أيتها الأم.. انتبها إلى ضرورة التقليل من التحذيرات.

– انتبه أيها الأب وانتبهى أيتها الأم.. انتبها إلى ضرورة التقليل من التوجيهات.

– انتبه أيها الأب وانتبهى أيتها الأم.. انتبها إلى ضرورة التقليل من الممنوعات.

– انتبه أيها الأب وانتبهى أيتها الأم.. انتبها إلى ضرورة التقليل من التوبيخ "الأوتوماتيكى" وغير الضرورى.

نعم، إن الطفل يحبّ رقابة الكبار.. ولكن الطفل ليس آلة نديرها حسب هوانا، إن له إبداعه الخاص فى إدارة أمور حياته فلماذا نحرم أنفسنا من روية أبنائنا كمبدعين؟

ومن المطمئن أن خبرة كل أب وكل أم تختلف من طفل إلى آخر، فالطفل الأوّل يعانى من الثقل الشديد على أكتافه الصغيرة، ذلك الثقل المكون من الاهتمام الجشع من أبويه وكل من حوله بما يفعل وما يجب أن يفعل وما لا يجب أن يفعل.

إن الطفل الأوّل لا يستطيع أن يكوّن شخصية مستقلة بالنسبة لوالديه. إنه جزء منهما خرج إلى الحياة، والحقيقة أن الآباء والأمّهات يحتاجون إلى عملية فطام عاطفى من الاهتمام بالابن الأوّل على نحو متوتّر، وهذا يتم إذا أدرك الوالدان الحقيقة المهمة وهى أن الطفل كائن منفصل عنهما له شخصيته المتميزة وله طموحاته الخاصة، وغالبًا ما يتم ذلك الفطام آليًا عندما يولد الطفل الثانى، وذلك أن الطفل الأوّل يرضى فى نفس الآباء والأمهات، ذلك الاحتياج الصامت لوجود طفل مدلل، وغالبًا ما يكون التدليل زائدًا ومصحوبًا بضغوط الاهتمام الزائد.

إن الطفل الأول غالبًا ما يشعر بالزحام العاطفى من حوله.. عيون الأب وعيون الأم وعيون الأجداد وعيون الأقارب والجيران.

إن الطفل فى الأول فى الأسرة يعانى من هذا الزحام العاطفى، ويشعر بنفسه محاصراً بأسئلة من النوع التالى:

– لماذا تشهق هكذا؟

– لماذا لا تذهب إلى النوم؟

– لا تضع هذا الشىء فى فمك.. أتريد أن يقول الناس عنك إنك جائع ولا تأكل فى منزلك؟

وتختلط الأسئلة بالأوامر، تلك الأوامر من مثل:

– اسمع كلام جدك.

– قبِّل "ماما" لتسامحك.

– انطق الكلمات نطقًا سليمًا.

كل ذلك ينعكس فى نفس الطفل فيولد عدم اطمئنان.

إن الطفل الأول يكاد يتحوّل إلى آلة عليها أن ترضخ للأوامر والتعليمات.

ومن المستحسن، كما ذكرتُ من قبل، أن ينتبه الأب والأمّ إلى أن يقوما بفطام أنفسهما من ذلك الاهتمام الجشع الذى يحاصران به الطفل الأول.

وما أن يولد الطفل الثانى، حتى تجد أن كلا من الأب والأم يمتلئ ثقة بقدرته على الأبوّة والأمومة، ولذلك يتغاضى الأب والأم عن بعض من السلوك فى الطفل الثانى؛ فالأب يتعمق إحساسه بأنه قد تعلم الكثير من الخبرة من طفله الأول، والأم تحس أنها تعلمت الكثير من الخبرة من طفلها الأول.

ولذلك يتصرّف الأب والأم مع الطفل الثانى بكثير من الثقة، خلافًا للطفل الأوّل.

وغالبًا ما يشعر الآباء والأمهات بالخجل من سلوكهم المبالغ فيه مع الطفل الأول.

وأعتقد أن الأطفال يملكون قدرة هائلة على تحمل والديهم رغم صغر حجم الطفل بالنسبة لحجم أبويه.

وإنى لواثق بأن الأطفال يعرفون غريزيًا أنهم يجب أن ينالوا بعض الحرية حتى يستطيعوا اتّخاذ القرارات الصغيرة لاختيار ألوان من النشاط الخاص.

إن الطفل يشعر بدافع قوى للمحاربة من أجل حريته.

إنه يحارب من أجل أن يلعب بلعبته بالطريقة التى يحبها، لا بالطريقة التى يفرضها عليه الأب أو الأم.

إنه يحارب من أجل أن يرفض طعامًا أحبّه بالأمس ويروق له غدًا.

إنه يحارب من أجل أن يتركه الأب ليستخدم القلم بالطريقة التى يهواها.

ويحارب من أجل ألا يستسلم لارتداء الجوارب بالأسلوب الصحيح.

ويحارب من أجل عدم الاستكانة لأكثر من ثانيتين لتنظيف أذنه أو فمه.

ويحظى الطفل الثانى أو الثالث بحرّية أكبر فى اختيار أسلوبه الخاص، ويشعر أن الكبار لا يحاولون السيطرة عليه بعنف كما يشعر الطفل الأوّل.

إن على الآباء والأمّهات أن يتعلّموا من ثقتهم بأنفسهم التى ينالونها من إنجاب الطفل الثانى ليصححوا أسلوب تعاملهم مع الطفل الأوّل.

والحقيقة الأساسية فى التعامل مع الطفل هى:

أن الابن يحتاج إلى أن تحبّه وأن تحتضنه، لا أن تحاصره.

وأن الابن يحتاج إلى الرعاية الممزوجة بالثقة.

وأن الابن يحتاج إلى أن تعلّمه كل جديد دون أن تُكرهه.

باختصار، لا تجعل أكتاف الطفل ملعبًا تلهو فيه بكرة القلق الزائد.

الصداقة مع الأبناء حق طبيعى

للأبناء. فهل يعرف الآباء ذلك؟

إذا جاء الطفل الصغير ليقول لوالده أو لوالدته:

ـ أحمد ضربنى اليوم فى المدرسة.

وإذا أجاب الوالد أو الوالدة:

ـ هل أنت على ثقة بأنك لم تكن البادئ بضربه أو إهانته؟!

هنا يغلق الأب الباب أمام الحوار. إنه يتحّول فى نظر ابنه من صديق يلجأ إليه إلى محقّق أو قاضٍ يملك الثواب والعقاب.

بل إنه ـ وفى نظر الابن ـ محقّق ظالم لأنه يبحث عن اتهام الضحية ويصر على اكتشاف البراءة للمعتدى عليه.

إن الطفل الصغير يطلب من الأب والأم الانتباه مع الثقة والصداقة مع تواصل الحوار.

فإذا تكلّم الابن أولاً إلى والديه، فعلى الوالدين أن يقاوما أى ميل إلى الانتقاد أو اللامبالاة بما يقوله الابن.

وإذا سأل أب أو سألت أم عن آداب المناقشة مع الطفل نقول إنها من نفس آداب المناقشة بين اثنين من الكبار تجمع بينهما مشاعر الصداقة الجيدة.

إن على الأب ـ أو الأم ـ أن يضع نفسه فى حالة اهتمام وتعاطف وأن يستمع للابن بجّدية وتفاؤل وأن تقابل عيون الأب ـ أو الأم ـ عيون الابن بمحبّة. إن من الضرورى فى

هذا الموقف أن نجبر أنفسنا على أن نؤجّل اللهجة الموجّهة أو الآمرة وأن نسمح للحب أن يطل من أعيننا. هنا ينتقل هذا الإحساس الجميل إلى أعماق الابن. وهنا لن يلجأ الابن إلى الصمت أو الشكوى منك ومن أوامرك أو التوسل إليك حتى تمتنع عن عقابه. وفى العادة، إذا ما قابل الأب ـو الأم ـالابن بلهجة فيها أوامر وتوجيهات ونصائح وتهديد بعقاب، فإن الابن ينزلق إلى الصمت، أو إلى الشكوى من الأب وإلى الأب، إلى التوسل إلى الأب حتى يمتنع عن تنفيذ تهديده بالعقاب.

إن الابن فى مثل هذه الحالة لا يعير أذنًا صاغية إلى كلمات الأب أو الأم، تمامًا كما لم يُعِر الأب أو الأم أذنيه إلى الطفل.

لكن الأب إذا ما استمع إلى الابن جيداً وبروح من الصداقة وبأسلوب غير ناقد، يتحول الابن إلى صديق رائع لأبيه.

إن إحساس الابن بأن الأب ـأو الأم ـقد استجاب له فى التفكير والمشاعر إنما يربط روح الأب والابن برباط روحى بحيث تعمل نية الابن ونية الأب بإيقاع منسجم.

وإذا ما دخل الابن المنزل بعد يوم دارسى. وهو يعرف أن والده سيدخل معه فى نقاش حميم مفعم بالتفاهم خالٍ من التهديد، فإن ذلك الابن سيجرى من المدرسة إلى المنزل جريًا لأنه يشعر أنه يتمتع بالصداقة مع أفراد أسرته.

ولكن ماذا عن الأعوام الأولى للطفل؟

نلحظ ـعلى سبيل المثال ـأن الطفل فى سن الثانية عشر شهراً يتمنى أن يفعل كلّ ما يفعله الأب أو الأم. فإذا رأى الطفل والده يربت على حيوان أليف، فإن الابن يتمنى أن يفعل مثلما يفعل الأب، رغم أنه ينكمش على نفسه وهو مبهور.

إن الطفل فى مثل هذه الحالة يحاول أن يقيم علاقة صداقة مع الحيوان الأليف ولو بالخيال.

إن تجربة اللعب مع حيوان أليف أو لعبة كبيرة تثير فى نفس الطفل حالة من الفخر.. تمامًا مثلما يحاول الطفل الصغير أن يمسك بعجلة قيادة سيارة لا تتحرك.

وعندما يبلغ الطفل الثالثة من العمر ويشاهد ـعلى سبيل المثال ـجرّافًا كبيراً يحفر فى الشارع، فإنه يمتلئ بانفعالات عارمة ويحاول أن يقلد السائق الذى يحرك الجرّاف بأزرار من مقعد القيادة، ويظل الطفل يحكى لعدة ساعات عن انبهاره بما رأى.

والخروج مع الأطفال فى أيام الإجازة مسألة مهمة. ولكن بعضنا يقوم بهذه الإجازة كواجب ثقيل الظل. إنه مجرد خروج لقضاء مسؤولية نتمنى ألا تكون قد بدأت. إنها عِبء

ثقيل ضمن أعباء الأسبوع الأخرى. إنها الاستجابة الأسبوعية للمطاردة بين الابن وأسرته.. فإذا كنتم تضغطون عليه بالمذاكرة وبالتهديد وبالوعيد، فلماذا لا تكونون أوفياء بحقوقه الأساسية الأولى وهى أن يخرج إلى الهواء الطلق؟ أو أن يتحوّل إلى حديقة يختارها الأب أو الأم، حديقة ينطلق فيها كل فرد من أفراد الأسرة مع أفكاره ومشاعره.

إن ذلك اليوم لا يمكن عدّه يومًا عاديًا من الأيام التى تتلاقى فيها الأسرة. فالخروج مع الأطفال بهدف الترفيه يجب أن يكون أمرًا محببًا للأب وللأم.

إن قبول صحبة الطفل لا يجب أن يكون عبئًا.. هذا إذا ما عرفنا أن له مزايا رائعة يمكنه أن يمنحنا إيّاها.. وأوّلها ميزة الامتنان والاعتراف بالجميل.

إن الطفل الذى يشعر أن أسرته تسعد بصحبته هو أقل الأطفال إزعاجًا للأسرة فى يوم العطلة.

ويمكن أن نحفز الطفل على الترحيب بالخروج معنا نحن الآباء فى يوم الإجازة الأسبوعية بأن نحكى له حكايات مثيرة عن المكان الذى سوف نذهب إليه سواء أكان حديقة أم متحفًا أم سيركًا أم شاطئ البحر أم حديقة الحيوان.

وعندما نخرج مع الطفل إلى النزهة علينا أن ننسى تمامًا لهجة التهديد التى تصاحب الآباء والأمهّات قليلى الصبر. إن التهديدات تجعل الطفل يعزف من البداية عن الرحلة أو النزهة. بل إن هذه التهديدات تجعله سهل الاستثارة لتنفيذ كل ما هددناه من أجله.. إنه لا ينطلق إلى الترويح عن نفسه بمشاركتنا، ولكنه ينطلق إلى التنكيل بنا لأننا هدّدناه وقررنا من البداية أنه طفل سيئ المعشر.

وعلينا نحن الآباء أيضًا ألا نضغط على الأطفال بمعرفة الأحداث أو بمشاهدة الوقائع كما نراها نحن. فعندما نزور حديقة الحيوانات مثلًا، علينا أن نترك للطفل حرية التوقف عند الحيوانات التى يحب أن يراها وأن نترك له الفرصة ليناقش حارس هذا الحيوان. ولكن التعب أو الملل قد يستبدان بالطفل فلا يعود قادرًا على أن يستكمل مشاهدة الحيوانات. هنا علينا أن نتوقف عن الضغط على الأطفال أو الإلحاح عليهم. إن الطفل قد يشاهد ما نريد أن يراه إنما من دون استمتاع، بل إن ما يراه بالضغط عليه إكراهًا ينسيه ما شاهده بسرور وسعادة وإقبال.

إن هناك متسعًا من الوقت فى المستقبل لتعويض الطفل ما فاته من أحداث كنا نتمنى له أن يراها.

وعلى الأب والأم أن يتجنبا تمامًا لهجة التحذيرات المستمرة فى أثناء الرحلات.. لأن

ذلك يوتر العلاقة بين الابن ووالديه.

مثال ذلك الرحلات إلى الشواطئ فى فصل الصيف، تلك الرحلات التى يتفنن الكبار فيها فى تحذير الأطفال من أخطار الأمواج.

إن التحذير لا يجدى. ولكن ما يجدى هو تحديد وقت للسباحة ويكون الطفل فى صحبة أبيه على شاطئ البحر. هذا أفضل بكثير من التحذير. إن الطفل يحتاج من الكبار أن يقوموا بدور المدير الفعَّال فى الحياة، لا المدير الذى يكتفى بالصراخ.

وكثير من الآباء يقولون "إن أطفال هذا الزمان لا يقرأون رغم أننا نشترى لهم أغلى الكتب". نقول إن المسألة ليست فى شراء الكتب، بقدر ما هى أن نقرأ مع الطفل لمدة نصف ساعة وبصوت عال. وكلما استطاع الأب أو الأم أن يقرأ للابن بصوت عالى عددًا من القصص فهو سيتوقف عند مجموعة من هذه القصص ويطلب إعادة قراءتها. إن تعويد الطفل على القراءة يأتى عن هذا الطريق لا عن طريق إغراق الطفل بالكتب الغالية الثمن.

وهذا الأسلوب من تعويد الطفل على القراءة يمنح الطفل الثقة فى قدرته على الاستفادة من القراءة والاندماج والتآلف مع الكبار.

أما مشاهدة التليفزيون فى يوم الإجازة فهو أمر يجب أن يشترك فيه الكبار مع الأطفال.

إن مشاهدة أفلام الأطفال تيسر لهم متعة لا نهاية لها، وعن طريق هذه المشاهدة يمكننا اختيار ما يمكن أن يشاهدوه، وأن نغلق التليفزيون حتى لا يشاهدوا ما لا نرغب أن يشاهدوه.

ويمكن أن نجعل الطفل يشاركنا هواية لنا، سواء كانت النجارة أم أعمال الخياطة أم تربية النباتات أم الرسم أم الزراعة، وكل ذلك على أساس من الصداقة والمشاركة.

ولكن ذلك أمرًا يمكن أن يفضى إلى إحباط الآباء والأبناء على السواء، وذلك إذا أصرّ الأب أن يرضخ الأبناء للقواعد، وأن يرضخ الأبناء لسيطرته المطلقة، أو أن يحترف الأب توجيه كلمات النقد العنيف للابن.

إن عمل الآباء والأبناء معًا هو أمر ممتع للغاية، خصوصًا إذا عرف الأب أن الابن يحب العمل بجانب والده، وأن يصحبه فى ممارسة الهوايات المنزلية، ولكن الابن لا يقدر على الاستمرار فى العمل، إذ أن له خياله الواسع الذى يرحل إليه بعد وقت قصير من العمل، ولنا أن نتوقع المزيد من مشاركة الطفل فى مثل هذه الهوايات كلما أحس أننا لا نضغط عليه بها، وأننا نترك له حرية المشاركة فى العمل والانسحاب من العمل.

وعندما يشترى الوالد لعبة للطفل، عليه أن يشترى لعبة فى مستوى إدراك الطفل، وأن يترك للطفل قيادة أو تركيب ما تتطلبه اللعبة، سواء أكانت قطاراً كهربائياً أم مجموعة سيارات صغيرة مثلاً.

إن علينا أن نعرف ضرورة مهمة فى اختيار لعبة الأطفال، وهى ألا تكون اللعبة معقدة التركيب إلى حد يسبب لهم الحرج.

وإذا لم نوفق فى أى شئ مما تقدم، علينا أن نتقن على الأقل فن المناقشة بصداقة مع الطفل.

إن الطفل فيلسوف بطبيعة تكوينه، وهو ينطق بما يقول بصورة متناهية النقاء والوضوح. وإنه من المؤسف حقًا أن بعض الآباء لا ينتبهون إلى الجواهر التى ينطقها الأبناء بعفوية.

وباختصار.. إن وقت الاستمتاع مع الأطفال حق للآباء، ولكن هل ينتبه الآباء إلى إتقان استخدام هذا الحق؟

لعبة (عروسة وعريس) يلعبها الأطفال ويفضلها الكبار

من الأمور الطبيعية فى الطفولة.. أن يلعب الولد مع البنت لعبة "عروسة وعريس".

ولا يفعل الأطفال ذلك تلبية لاحتياج بيولوجى، ولكن الأطفال يفعلون ذلك لأنهم يشتاقون إلى إتقان دور البشر الناضجين.

ومن الأمور الطبيعية فى الطفولة أن يلعب الأولاد بالدمى التى تمثل بالنسبة إليهم الكائنات الأصغر، تلك الكائنات التى تحتاج إلى رعاية ما.

ومن العادى جداً أن الطفل من عمر الثالثة إلى السادسة يعيش فى حالة عاطفية متوهّجة مع والده ووالدته، إن خيال الطفل يضفى لمسات من السحر والجمال على الأم وعلى الأب. ويفرط الطفل فى تصور الفضائل كلّها ويلصقها بأبيه وأمه، كما يفرط أيضاً فى تنزيه والديه عن العيوب.

ومن التقليدى تماماً أن الولد فى هذه السن يحترم أباه، ويحاول أن يتمثل أسلوبه فى الحياة، وتصبح أمّه هى هدفه الرومانسى، وعندما يبلغ الطفل الرابعة من العمر يعلن بكل إخلاص أنه سيتزوج أمه.

وكذلك الفتاة فى عمر الرابعة تعلن بمنتهى الرقة أنها ستتزوج والدها.

ويتمنى كل من الطفل والطفلة فى هذا العمر أن يكون لهما طفل من شريكه الرومانسى الكبير الأب أو الأم!!

وما أن يلامس الشاب أو البنت أعتاب المراهقة حتى يواجهان الحب كقنبلة عنيفة تنفجر فى الأعماق.

إنه حب مثالى فيه من المغالاة ما يشبه مغالاة الطفل فى حب أحد والديه.

إن المراهق فى الحب الأول يرى المحبوب إنسانًا ذا جمال خارق وسحر كامل لا تشوبه أى شائبة.

وهذه الخبرة _خبرة الحب الأول المثالى _تظهر عند كل المراهقين سواء أكانت لديهم حياة أسرية مستقرة أم مضطربة.

وسحر العلاقة المثالية الخلابة يصاحب كل البشر حتى هؤلاء الرجال والنساء الذين فشلوا فى تكوين أسرة متماسكة.

والذين يعلنون رفضهم للزواج من الشباب والنساء، لا يعلنون ذلك إلا لإخفاء العجز فى تحقيق صورة الزواج الناجح.

إن فى أعماق كل إنسان قدرة على الحب الحنون الكريم؛ فإذا ما صادف طرفًا آخر لديه نفس الاستعداد، فإن هذا الحنان الكريم يسرع بالاثنين إلى الزواج.

والشباب لا يرغب فى الزواج لمجّرد إشباع الشهوة الجسدية. ففى زماننا هذا نجد أن الرجل يمكنه أن يسافر إلى مجتمعات تبيح التواصل واللقاء بين الرجل والمرأة من دون قيود لينطلق إلى آفاق تملأه بالحسرة لا بالارتواء. أما المرأة فقد يكون وضعها مختلفًا: إنها قد تنطلق فى الخيال لا فى الواقع وخصوصًا فى المجتمعات المحافظة.

إن الشباب _رجالاً ونساء _يرغبون فى الزواج لإشباع الاحتياج النفسى والاجتماعى، ولإثبات القدرة الخاصة على تلافى أخطاء الأجيال السابقة.

وما أن يتزوج الرجل والمرأة حتى يطل من أعماق كل منهما سؤال صامت عن الطفل القادم.

والسبب الرئيسى عند معظم البشر فى تمنى إنجاب الأطفال هو إحساس عميق لدى الإنسان _رجلاً كان أم امرأة _بحب المستقبل.

إن الفصيلة الإنسانية تعلم جيدًا أن إعداد طفل واحد يحتاج إلى رعاية لمدة تزيد على خمسة عشر عامًا من التدريب وتوفير الاحتياجات المادية والنفسية.

إن قلب الإنسان _رجلاً كان أم امرأة _يحلم دومًا بأن يكون له ابن يربيه. ولذلك فإننى أضحك أحيانًا من الكلمات التى أسمعها من الشاب الجامعى الذى يعلن رفضه للزواج قائلاً: كيف أرضى لنفسى أن أكون عجوزًا صامتًا كأبى، وأجلس أمام التليفزيون

دون أن أحدث أمى بكلمة؟ وكيف أرضى لمن أحب أن تكون مثل أمى تدور كالنحلة منذ الصباح وحتى المساء لتجلس هى الأخرى دون كلمات حنون؟ إننى أفضل الإحساس بالوحدة على أن أعيش مثل هذا الموقف.

إننى أضحك من مثل هذه الكلمات لأن صاحبها غالبًا ما أراه بعد سنوات وهو يحمل طفلاً أنجبه ويقول لى: إننى أريده أكثر سعادة منى.

وعندما أسأله عن الجد والجدة ينساب فى حديث رقراق عن مدى حنان الجد والجدة على الوليد، وكيف أن متعة الحياة عند والدَى هذا الشاب هى اللعب مع الحفيد والعناية به.

إن أمثال هذا الشاب الذى أعلن رفضه للزواج ثم تزوّج هم الدليل الحىّ على أن "مؤسسة الزواج لن تغلق أبوابها أبدًا".

ومع أن هناك الكثير من العيوب قد توجد فى الأسرة، فإن الأسرة تبقى قادرة على تصحيح عيوبها بذاتها.

إن التمرد والطموح قد يدفع بعض الشبان إلى ترك بيت الأسرة فور الاستقلال الاقتصادى، ذلك أن الشاب قد يفقد الصبر على الأسلوب الذى يعامله به والده وإن كان الشاب يعانى فى الأسبوع الأوّل من الابتعاد عن أسرته، إذ يفتقد الأمان العاطفى. ويكاد الشاب فى مثل هذه الحالة يقع فى حالة من الاكتئاب وتأنيب النفس لأنه ترك بيت الأسرة.

وتفرط أفكار هؤلاء الشباب فى الندم والانتباه إلى التنافر المستمرّ بين آرائهم وآراء آبائهم، وإلى صعوبة إدراكهم لمشاعر والديهم وصعوبة إدراك والديهم لمشاعرهم.

ثم لا بد من تذكّر المعارك التى نشبت بين الابن الشاب ووالديه. وفى الغالب يتذكّر الابن الشاب بعض الكلمات المهينة التى سمعها من أمه أو من أبيه، ولكن هذا الشاب بعد رحلة من التجارب العاطفيّة يجد نفسه مشدودًا إلى فتاة بعينها ويجد نفسه أمام كلمة الزواج ككلمة جميلة ورومانسية.

وبعد سنوات من الزواج قد يواجه الشاب المتزوج أو الشابة المتزوجة حقيقة مُرّة هى "أن استمرار هذا الزواج مستحيل".

وقد ينتهى أمر هذا الزواج إلى الطلاق؛ فيصبح كل من الزوجين فى معسكر يكره الآخر تمامًا ويراه سيئًا.

وأكثر من ذلك قد يحاول كل طرف أن ينقل إلى أصدقائه المقربين عمق المأساة بتصوير الإنسان الذى كان من أقرب الناس إليه وكأنه متوحش وطفيلى وأنانى.

ويفرط كل طرف فى التهكّم اللاذع على سلوك هذا الذى كان شريكًا له فى العمر

ويدور كل منهما حول الآخر بحكايات عن تفاصيل على غاية من الدناءة.، ويحاول كل منهما إثبات أن شريكه فى تجربة الزواج كان حقيراً وفى منتهى النذالة.

ولكن هذا لا يمنع من أن تنفجر "المثالية الرومانسية" من جديد فى حياة الإنسان ليتزوج من جديد، وقد لا يتزوّج على الإطلاق.

إن نجاح الزواج ليس أمراً مؤكداً فى كل الأحوال.

ولكن المؤكد أن نجاح الزواج يتطلب قدراً كبيراً من العمل الشاق.

إن الزواج الناجح نصفه منحة من السماء ونصفه الآخر منسوج من الجهد المشترك بين الرجل والمرأة.

وقولنا إن نجاح الزواج يتطلب جهداً مشتركًا ليس معناه أن تحبس المرأة نفسها فى المطبخ لتصطاد عشق الرجل عن طريق معدته ولا يعنى أن يقتل الرجل نفسه إرهاقًا فى العمل من أجل توفير أكبر قدر ممكن من الرفاهية المادية لأسرته.

ولكن العمل المشترك من أجل نجاح الزواج يتطلب أن يمتلك الرجل حساسية الانتباه العميق لمشاعر المرأة، وأن تمتلك المرأة حساسية الاستماع بعمق إلى مشاعر الرجل.

إن علينا أن نحاول امتلاك طاقة الكرم الروحى الذى ينتصر على المشكلات الصغيرة والكبيرة.

ولا يعنى ذلك أننى أقترح أن يكون الزواج كله عطاء بدون أخذ. إننى أثق بضرورة التوازن بين الاستقبال والعطاء. ولكنى مازلت متيقنًا أن عطاء الإنسان لشريك العمر يسبّب السعادة والرضا أكثر من انتظار أن يعطيك شريك العمر شيئًا.

وبمعنى آخر.. إننى أثق بأن الإنسان يجنى سعادة أكبر عندما يستقبل ناتج جهد قد بذله من قبل.

إن اشتهاء السعادة هو الذى يجعل الجهد الذى يبذله الإنسان من أجلها لا أعباء له.

أما هؤلاء الذين يهربون من الزواج ويفضلون الغرق فى علاقات عاطفية بلا مسئوليات فلنا أن نسألهم عن كميات الحبوب المهدئة التى يستخدمونها للنوم، وأن نسألهم عن قدر الهواجس الحزينة التى تطاردهم.

إن الإنسان دون زواج يشعر أنه مفقود من تعداد هذا العالم وبائس فى النهاية.

ولو أننا أجرينا استفتاء عامًا بين سكان الأرض ليختاروا بين موقفين: موقف الزواج وإنجاب أبناء وأحفاد، وموقف الحياة دون زواج، لو أجرينا هذا الاستفتاء فأنا واثق بأن الغالبية العظمى ستختار حياة الزواج وإنجاب الأطفال.

سوء الاستخدام

العاطفى للأبناء !!

تطل اللهفة من عيون الجدّ أو الجدّة على اللعب مع الأحفاد.

وفى قلب هذه اللهفة يمكن أن يرى الإنسان لمحة من ندم له طابع خاص، ندم سببه ذلك السؤال السرى الذى يحتفر فى قلب الجد أو الجدة كشوكة لها وخز لا يراه أحد. هذا السؤال السرى هو: لماذا لم أكن أستمتع باللعب مع أبنائى كما ألعب الآن مع أحفادى؟!

والسرّ فى هذا السؤال هو أن الجدّ أو الجدّة يملكان خبرة من التدريب الكافى على التعامل مع الطفل. لكن تعامل الأب أو الأم مع الطفل ممزوج دائمًا بالمسئولية الكاملة عنه. إن الأب قد يداعب ابنه وقد يلعب معه وكذلك الأم. لكن كلاً من الأب والأم يختلط لعبه مع الابن برغبة فى التوجيه. إن الجد أو الجدة يملكان الرغبة فى النزول إلى مستوى الطفل والحديث معه عما يسعده، ويمكنهما إقناعه بأن يأكل أو أن يساعداه على ارتداء الحذاء أو أن يعلماه كيف يمكن أن يمسح أنفه السائل، أو الابتعاد عن مصادر الخطر، كأزرار الكهرباء أو موقد النار أو أماكن حفظ الأدوية. لكن الآباء والأمهات ينتابهم عدم الصبر وضيق الوقت، فتنطلق الأوامر المختلطة بالتهديد للأبناء: "إن لم تأكل لن تشاهد التليفزيون".. "إن لم تتأدّب لن أتحدّث معك".. "إن لم تسمع كلامى وتنفذه فلن أحبك أبدًا".. "إن لم تنم مُبَكرًا فلن أقيم لك حفلة عيد ميلادك".

وننسى نحن الآباء أن مشاعر الأبناء ليست محلاً تجاريًا نطلب من صاحبه أن يعاملنا كزبائن فيه وبمنطق الزبون دائمًا على حق.

ننسى نحن الآباء والأمّهات أن الأساس الوجدانى للطفل هو أنه جزء من أبيه وأمه وأنه لا يحب من يهدّده فى ذلك أبدًا مهما كانت الظروف.

والأجداد والجدات يعرفون بالخبرة تلك الحقيقة. إنهم يتعاملون مع الحفيد على أساس أنه صاحب الحق فى الحياة، وأن طلباته مجابة مادامت معقولة.

ولكن هناك مباراة فاسدة الطابع يمكن أن تتدخل فى العلاقة بين الابن وجده وجدته كطرف، وبين الابن وأمه وأبيه كطرف آخر.

إن الجدّ والجدّة قد يوحيان للوالدين برسالة غاية فى الخطورة والخطأ: إنك يا ابنى الذى أنجبت حفيدًا لنا لست جديرًا بأن تكون أبًا، أو إنك يا ابنتى لست جديرة بأن تكونى أمًا.

إن الجدّ أو الجدّة قد يعرفان حقائق عن الأطفال أكثر من الآباء والأمهات، لكن ليعلم الجدّ أو الجدّة أن الطفل كائن غاية فى الذكاء وهو يستطيع أن "يلعب" على تضارب السلطات جيدًا. ولذلك فمن المهم عدم ممارسة سوء الاستغلال العاطفى. من المهم أن يعرف الجدّ والجدّة أن زوجة ابنه وهى أم الطفل لا تعامل الطفل كما يجب. هنا قد يتدخل الجدّ أو الجدّة بالتعليمات المتناقضة مع تعليمات الأم، وهنا يمكن أن يسّبب الجدُّ مشاكل لا داعى لها لابنه والد الطفل مع زوجته التى هى أمّ الطفل. وقد تكون الجدة فى أعماقها غير موافقة على زوج البنت أو زوجة الولد. وقد تنتقل هذه المسألة من أعماقهما إلى إصدار أوامر تتناقض مع أوامر والد الطفل أو والدة الطفل. وهنا تسّبب الجدّة المشاكل لابنها أو لابنتها دون داعٍ أو مبرر.

إن مصدر السلطات فى حياة الطفل هو أمه وأبوه ولا داعى لإهداء كمّية من التوتر للأسر الشابة. فيكفى ما عند الأسر الشابة من مشاكل فى هذا الزمان المعقّد.

أما الآباء والأمهات، وهم يرون الجّدات والأجداد يستمتعون باللعب مع الأبناء ذاتهم، فيتساءلون: "كيف يجدون كل هذا الصبر للتعامل مع الأطفال؟.. ألا توجد عندهم أعمال أخرى أكثر أهمية؟".

وينسى الآباء والأمهات أن معنى الوقت يختلف عند الأجداد عن معناه عند الآباء. إن الوقت عند الجد هو وقت حصاد سنوات العمر. إنه يحصد الآن باللعب مع الحفيد كمية ما زرعه من حب ومسئولية عن الابن أو البنت اللذين كبرا وأنجبا له هذا الحفيد.

أما قيمة الوقت عند الأب والأم، فهى المزيد من إتقان الوظائف التى يشغلها أىّ منهما ومحاولة كسب أكبر كمية من المال لتحسين مستوى حياة الأسرة. إن عمر الأب والأم

هوعمر حراثة أرض الحاضر ليكون لهما مستقبل أفضل وأن يكون الحاضر هو اتّساع الإمكانات المريحة. ومثال على ذلك أن الجد أو الجدّة لا يهتمان كثيراً بإعلانات التليفزيون أو الصحف عن السيارة الجديدة أو الثلاجة الجديدة أو الأثاث الجديد. أما عيون الأب وعيون الأم فهى تهتم بالإعلانات، لأن الملل والترقب يتنازعان مشاعرهما تجاه السيارة أو الثلاجة أو الغسالة أو أثاث المنزل. إن الجد أو الجدة يعتزان بالسيارة القديمة لأنها، مثلهما، هادئة ومطيعة، لذلك فإن كلاً منهما يقود السيارة بهدوء، ويتعامل بشئ من المشاعر الإنسانية، أو يقوم بالصيانة بصفة دورية. ثم إن خروجهما محدود. والعكس صحيح فى حياة الآباء والأمهات.

إن الأب والأم لا يفكران فى السيارة إلا إذا تعطلت، ويريان أن الذهاب بالسيارة للصيانة هو ضياع جزء من المال والوقت، كما أن السيارة والغسالة والثلاجة وأثاث البيت هوجزء من التعبير عن "الفخامة" الاجتماعية، وهذه "الفخامة" الاجتماعية ليست مهمة فى أغلب الأحوال عند الجد و الجدة.

إن قيمة الوقت تختلف عند الأجداد عنهما عند الآباء، ولذلك نجد الأجداد صبورين فى التعامل مع الأحفاد.

لكن ماذا عن أعماق الطفل الصغير؟

إن الطفل الصغير يحب الجد أو الجدة لأن له – معهما – مساحة من الحرية أكبر، ولأنه يستطيع أن يطلب بعض الممنوعات فتتم الاستجابة له. ولكن الطفل لا يفكر على الإطلاق فى أن يكون مثل الجد و الجدة. إنه يريد أن يكون شاباً قوياً كأبيه، كما تريد الفتاة أن تغدو جميلة كأمها. نعم، إن الطفل يتطلع إلى الحب الممزوج بالاحترام الذى يشعر أن والديه يستحقانه وينالانه من كافة المحيطين بالأسرة. إن الأب هو المثل الأعلى للابن وكذلك الأم هى المثل الأعلى للبنت. وكل من الولد والبنت ينظر إلى الأب والأم وكأنهما قد حققا أرقى مكانة فى العالم. ولذلك يحاول الابن أن يقلد والده، وكذلك تحاول البنت أن تقلّد والدتها.

ولذلك يستقبل الابن أو البنت تعليمات الأب والأم بمنتهى الحب والرغبة فى تنفيذ هذه الأوامر. ولكن الطفل قد يرتبك عندما يتلقّى الأمر الصادر عن الأب أو الأم بعصبية أو فتور أو استهجان. إنه يقع فى دائرة التخيّل فيظن أنه كائن غير مرغوب فيه أو أن أباه وأمه قررا أن يتخليا عنه. وهذا الارتباك قد يؤدى إلى عدم تنفيذ الأمر الصادر عن الأب أو الأم. ولذلك نطلب من الآباء والأمهات أن يزرعوا الثقة النفسية فى الأبناء. إن الأوامر يجب أن

تكون حازمة وأن تتضمن اللهجة أيضًا قدرة الأب والأم على مساعدة الطفل. فإن كان الطفل قد فرش أرض الغرفة بلعبه الكثيرة فإن الأم يمكنها أن تقول: هيا نجمع لعبك معًا. وهنا تبدأ الأم فى جمع لعب الطفل، وسيبدأ الطفل فوراً فى مساعدة الأم.

والابن قد يتلقى الأمر بأن يذهب ليغسل يديه بعد الأكل وأن يدخل الحمام، لكنه قد يتلكأ وقد يمتنع وقد يبكى أو يصرخ. لكن الابن لو تلقى الأمر بلهجة هادئة فإنه سيستجيب بمنتهى الهدوء.

إن الطفل يحب أن يقوم بالجزء الأكبر من العمل، ولكن كلما زاد عليه الإلحاح فإنه يشعر بالرغبة فى العناد وفى عدم القيام بما نطلب منه من أعمال. وعلينا أن ننفذ عقاب الطفل إن أساء الأدب أو السلوك، لكن بشرط ألا يحمل العقاب صفة الانتقام. إن المراقبة الحنونة للطفل، والكلام بهدوء معه، والتوجيه الملىء بالثقة، وعدم منع الطفل من فعل إلا بعد الدخول معه فى حوار يحس من خلاله بالحزم فى قولنا وعدم إطلاق التوبيخ وكأنه قذائف صاروخية.. كل ذلك يساعد الأب والأم على الاستمتاع بالساعات التى يقضيانها مع الطفل.

إن الأب قد يسرح بخياله وهو فى مكتبه متخيلاً لحظة أسرف فيها فى عقاب الابن الصغير؛ فيقول لنفسه: "لماذا لا أدلّل ابنى كما يفعل بقية الآباء"، ويغرق الأب فى الندم لأنه عاقب ابنه عقابًا فوق اللازم.

والأم قد تسرح فى خيالها بعد أن ينام طفلها الذى عاث فسادًا فى كل شئ فضربته بعنف شديد. وقد تقول الأم لنفسها: "إننى غير جديرة بأن أكون أمّا؛ لأنى لا أدلّل ابنى كما يجب". وتغرق الأم فى سلسلة من الندم لا نهاية لها وقد تذهب إلى الطفل فى سريره لتقبّله أو تحتضنه.

ولكن لوم النفس على عقاب الابن لا يجب أن يأخذ طابع المأساة. إنه أمر طبيعى ويحدث كثيراً عندما نفقد السيطرة على أعصابنا.

ويعرف الآباء والأمهات أن الطفل الأوّل كائن يتمتع بمقدرة رهيبة على استكشاف آفاق الرضا والغضب عند الأب والأم، تمامًا كحرصه على البحث فى كل زاوية من أثاث البيت وفى دواليب الملابس، وكيفية تشغيل الغسالة الكهربائية وكيفية إضاءة الكهرباء. إنه كائن يتدخل فى كل شئ ولا يترك شيئًا فى مكانه.

ويمرّ العام الأول والثانى من حياة الطفل الأول كمرحلة مزعجة وممتعة من فرط عجز الأب والأم والتفاهم مع كتلة الإحساس والمشاعر والحركة التى غيّرت وجه حياتهما معًا.

إنهما عامان يعطيان كلاً من الأب والأم شهادة بأن كلاً منهما جدير بمكانة الأب ومكانة الأم.

وكما كانت الولادة لحظة مليئة بالشجى والألم، ويقال عنها فى تاريخ كل أم إنها "لحظة منسية".. كذلك تماماً يكون العام الأول والثانى من عمر الابن الأول، فهو بمثابة دبلوم من الدراسات العليا فى كيفية عدم الوقوع فى سوء الاستغلال العاطفى من الآباء والأمهات للأبناء ومن الأبناء للآباء والأمهات.

عالم من الأسئلة الحرجة جداً !!

فجأة، ودون سابق إنذار يتدخل الطفل صاحب السنوات الأربع إلى غرفة الجلوس، ويكون الجالس فيها الأم الحامل التى تنتظر مولوداً جديداً بعد أسابيع قليلة ومعها عدد من الأقارب الذين يتحدثون عن المولود الجديد. ويضع الطفل يديه فى وسطه وكأنه سيوجّه اتهاماً إلى الأم ويسألها بصوت مرتفع:

ـ من قال لك أن تنجبى طفلاً غيرى؟ ثم لماذا لم تقولى لى كيف ينجب الرجال والنساء الأطفال؟ قولى لى كيف تنجبين الأطفال ولماذا تخبئيهم داخل بطنك؟

وقد يتراقص الحاضرون من فرط الضحك لهذا السؤال المفاجئ، وقد تتطوع إحدى الحاضرات بالإجابة التقليدية القديمة فتقول: وَجَدَكَ بابا وماما عند باب الجامع فأخذاك لأنك طفل جميل. وتنسى صاحبة مثل هذه الإجابة أن أفلام التليفزيون والفيديو قد قامت بتعرية جزء كبير جداً من الإجابة؛ فقصص الحب تحكى الكثير، وقصص الحمل والولادة تدور على التليفزيون وفى أفلام الفيديو. ولا شئ يمنع الطفل من رؤية كل ما يمكن أن يعرفه الرجل عن المرأة وما تعرفه المرأة عن الرجل. وتتراوح درجات المعرفة والخبرة التى تنتقل من التليفزيون إلى الطفل وتتنوع درجات الإثارة. ومن المشاهد التى دُهشت لها فى الريف الإنجليزى تبادل أطفال فى مرحلة ما قبل الحضانة، أى فى عمر الرابعة، لصور أجساد النساء العاريات وكذلك صور الرجال. إنهم لم يحصلوا على مجلات فاضحة ولكنهم قصوا من إعلانات المجلات الملونة أجساد النساء العاريات والرجال العراة!

ولابد للابن أو البنت عند طرح هذا السؤال "الناضج" أن يجدانا نتقبل هذا السؤال بشكل غير ناضج، ودون أن تحمر الوجوه بالخجل. إن من واجب الأم فى هذه الحالة أن تتحدث إلى الطفل وكأنه شخص مهم جداً وأن تقول له: إننى أريد أن أجيب عن سؤالك المهم فى وقت آخر عندما نكون بمفردنا ودون حضور أحد.

وعندما تعاملين الطفل بهذا القدر الهائل من التقدير فهو يتصرف طبقًا للإشارة العاطفية التى خرجت من قلبك وصاحبت لهجتك وأنت تتكلمين معه. ولا تنسى أبداً أن تقولى للطفل الحقيقة المجردة، والتى يمكن تلخيصها فى أن الله عندما خلق الكون وضع بذور كل الأطفال نصفها فى ظهور الرجل ونصفها فى بطون المرأة. وكل نصف يسعى إلى لقاء النصف الآخر بعد أن يصبح الرجل قادراً على العمل وتصبح المرأة قادرة على إدارة الحياة، وتنمو البذرة بعد أن تجد نصفها فى بطن المرأة إلى أن تلد.

وقد يكون سلوك الأب تجاه الأم مجافيًا للشعور العام. إن لنا أن نعرف أن الطفل إنما يأخذ فكرته عن نفسه وعن الجنس الآخر من التعامل اليومى بين الأب والأم. فإن كان الوالد كثير المعارك مع الأم أو كان يفتعل دائمًا تحقير رأيها، فإن الابن يعتبر أن ذلك "الاحتقار" هو أسلوب التعامل العاطفى مع المرأة. والبنت التى ترى أن أمها كثيرة التعالى عن الأب وأنها تسئ معاملته يستقر فى سلوكها أن التعامل مع الرجل مفتاحه التعالى وإساءة المعاملة.

وعندما يصرخ الأب قائلاً إنه يتعب كثيراً وأنه لا ينال أى شئ مقابل تعبه وأنه مظلوم، فإن هذا الصراخ ينقلب فى ذهن الطفل إلى أن الرجل هو ضحية المرأة، وأنه من الأفضل جداً عدم الزواج حتى يستمتع الإنسان بناتج عمله.

وعندما تصرخ الأم بالقول إن الرجل هو الكائن المستمتع الوحيد بالحياة، وهو المستغل لكل جهد المرأة، وإن المرأة هى التى تتعب وترهق نفسها وتعيش أسيرة للرجل فإن هذا اللون من الصراخ ينقلب فى وجدان الفتاة الصغيرة إلى كراهية للرجل وإلى عدم تقدير له، ولذلك نجدها تتهرب من الزواج عندما تكبر.

والأسرة التى تفضل الولد على البنت تقع فى سلسلة هائلة من الأخطاء. إن الرجل لم يفضّل على المرأة إلا بأن يتحمل المزيد من الكد والكدح والتعب لتوفير وسائل الحياة للمرأة. إنه تفضيل لا يعنى عبودية المرأة للرجل ولكن ضرورة السعى الجاد لتكون المرأة سيدة فى مجالات يرهق الرجال أنفسهم بدراستها ولا يستطيعون إتقانها كما قد تتقنها أبسط امرأة غير متعلمة. ومثال ذلك توفير حنان الأم للوليد.

إن الرجل والمرأة مطالبان بإعادة تربية نفسيهما ليكون كل منهما مثالاً قابلاً للتقليد من ابنه أو ابنته. وليس معنى ذلك أننى أطالب الأب أو الأم أن يرهقا نفسيهما بالتمثيل وإدعاء الحكمة ولكنى أطالبهما بأن يعرفا أن حبهما للطفل يمكن أن يقودهما إلى تغيير فى السلوك يتيح للطفل أن ينمو نموًا متوازنًا.

وهذا النمو المتوازن نجده فى الابن الثانى للأسرة أكثر مما نراه فى ابنهما البكر؛ فتربية الابن البكر كالجامعة التى دخلها الأب والأم لينالا الدراسات العليا فى تربية الأطفال. لقد عانى هذا الطفل من طاقة تحمل غير عادية، وهبها الله لكل مخلوق: عانى من الاهتمام المبالغ فيه، ومن تجمع الكبار حوله منذ أن بلغ الشهر السادس ليعاملوه وكأنه أعجوبة الزمان، وعانى من محاولات تعليمه أن يكون إنسانًا له أخلاق الملاك. فقد طلب منه والده أو والدته _على سبيل المثال _فى إحدى المرات أن يشارك أطفال الغرباء فى اللعب بألعابه رغم أن خيال الطفل يزدحم بصورة واحدة وهى أن الكبار سوف يساعدون هذا الطفل الغريب لكى يأخذ كل لعبه وكل أشيائه. وعلم الطفل الأول أباه وأمه أن العنف فى محاولة تعليمه التبرز والتبول لا يأتى بنتيجة وأنه من المهم أن يقولا له إن الإنسان عندما يخرج هذه البقايا فإنه لن يصبح فارغًا، بل سيطرد الأشياء الرديئة من بطنه ليفسح المجال للأطعمة المناسبة التى تساعده على أن يكبر. وعلم الطفل الأول كلا من أبيه وأمه أن يصمتا قليلاً حتى يبدأهم هو بالكلام، ذلك أن الهجوم الدائم على الابن بالكلام يجعله يعدل عن أن يبدأ الآخرين بالكلام أو التحية. علمهم الطفل الأول أيضًا أنه ليس تلك الدمية التى يعرضونها بفخر زائد أمام الغرباء، ذلك أنه قد امتنع عن بعض الأحيان عن الظهور أمام الضيوف.

وعلى ذلك يأتى الطفل الثانى وكل من الأب والأم وقد تدربا جيدًا على التعامل مع الطفل بتوازن واعتدال. ولكن على الأب والأم أن يتعلما كيفية الحديث عن الضيف القادم إلى الأسرة، وهو الابن الوليد. إن على الأب والأم أن يخبرا الطفل الأول أنه صاحب الفضل فى حبهما للأطفال وأنه لولا حسن معاملته لهما ولباقته ورقته وقدرته على التفاهم لما فكرا فى إنجاب طفل جديد. ولا بد من إعطاء الطفل الأول قدرًا من المشاركة فى الإعداد لاستقبال الطفل الثانى، كأن يشترك معهما فى اختيار ملابس الطفل الوليد وإعداد مكان استقباله. كما يفضل من الناحية النفسية ألا يشهد الطفل الأول أمه فى أثناء الوضع، ويستحسن أن تذهب الأم إلى المستشفى للولادة أو أن يذهب الطفل عند أصدقاء للأسرة يحب البقاء معهم لساعات. وعندما يعود الطفل الأول إلى المنزل عليه أن يحس أن

مكانته لم تهتز وإن كان هناك طفل جديد فى البيت.

ويمكن للأم أن تشرك الابن الكبير فى إعداد ملابس الطفل الوليد وأن يراها وهى تعد له الرضعة، وأن يساعدها فى ترتيب سرير الوليد. إن ذلك كله يخفف من مخاوف الطفل الأول على مكانته عند الأب والأم.

ويمكن أن يكون ميلاد الطفل الجديد بداية لتعليم الطفل الأكبر كيفية اتخاذ بعض القرارات الصغيرة لنفسه، كأن يختار لعبه، أو أن يتعلم كيف يعقد رباط الحذاء، وأن يتعلم أن الأب والأم صارا أقل سيطرة عليه، وأن يقوم وحده بتربية نبات أو ترتيب مكتبته الصغيرة.

ومن المهم تمامًا أن نُعلم الطفل الأول أنه لن يأخذ أحد مكانته، لذلك فعلى الأب عندما يدخل المنزل وهو عائد من العمل أن يسأل عن الطفل الكبير أولًا، ثم يسأل عن الطفل الوليد.

إن الابن الأكبر يحتاج فى الشهور الأولى من ميلاد الطفل الثانى إلى من يطمئنه على مكانته ومن يعزز استقلاله فى الوقت نفسه. ومن المفيد أن يصحب الأب ابنه الأول فى بعض النزهات الخاصة إلى الأماكن التى يجد فيها جماعات من الأطفال. إن أندية الأطفال موجودة فى كل البلاد، وغالبًا ما نجد فيها مشرفين وقيِّمين على درجة عالية من الكفاءة.

إن الأنانية وحب الذات ومقاومة الطفل الجديد القادم أمور طبيعية للغاية فى أعماق الطفل الأول. إنه يدافع عن مكانته. ولعل الخروج بصحبة الأب مرات متكررة فى خلال الأسبوع لشراء الأشياء الضرورية للأسرة يعوضه قليلاً عن فقدان عرضه الذى كان يجلس عليه وهو صدر الأم. كما أن خروجه إلى أندية الأطفال أو للحضانة لساعات قليلة فى اليوم الواحد يتيح له أن يرى نفسه مجرد فرد واحد ضمن مجموع الأطفال، وذلك عندما يشاركهم فى مباريات وألعاب وتقوم بينهم معارك وتنشأ خلافات ويلجأ إلى المشرفة على الحضانة ويعود مرة أخرى إلى المنزل ليجد نفسه أيضًا عضوًا فى جماعة وليس إمبراطورًا متوجًا يطلب من الجميع الرضوخ له.

إن حاجة الطفل منذ عامه الثالث للخروج من المنزل احتياج أساسى ليزول عنه لونان من الوهم الذى صنعه الكبار: الوهم الأول أنه إمبراطور متوج على عرش كل القلوب، والوهم الثانى أن يرى المجتمع الكبير فى نطاق آخر غير نطاق الأسرة.

وحتى فى حالة الطفل الوحيد يجب على الأب والأم أن يذهبا إلى الحضانة منذ بلوغه سن الثالثة حتى يعرف أن هناك مجتمعًا من الأطفال. إن الطفل لا يذهب إلى الحضانة

حتى يتعلم القراءة أو الكتابة. إنه يذهب ليلعب ولينمو وليتمم تدريبه على عدم الالتصاق الشديد بالأم أو الأب.

قد يقال إن الحضانة مكان ضيق ويمكن أن يصاب الطفل فيه بالزكام أو بالأمراض المعدية: ونحن نقول إن الأطباء يعرفون أكثر منا أن مناعة الطفل قوية إذا ما أخذ كل اللقاحات فى مواعيدها وأن الدول صارت تعتنى بصحة أطفالها بحيث لا يحتجز الطفل فى المنزل إلا بناء على أمر الطبيب بالراحة.

هكذا تدور حياة الطفل فى زماننا الصعب هذا. إن عليه أن يتعلم اقتحام المجتمع والتعاون معه.

ألستم معى فى ذلك؟

لا داعى للرحيل خارج المنزل ...

ثم الصراخ من بعد ذلك

إنها الرشوة الكاملة.

هذا ما قلته لنفسى وأنا أرى الطفل الصغير لا يأكل من يد أمه.

والأم تصر على أن الطفل لا يتناول غذائه جيداً لذلك يجب أن يأكل.

وينظر الطفل إلى الطعام و يشمئز منه.

وتتعجب الأم بدهشة تقترب بها من حافة الجنون: "لماذا لا تأكل يا بنى؟ إنه الطعام الذى قلت إنك تحبه!".

ويجيب الطفل ببراءة: "كنت أحب هذا الطعام أمس أما اليوم فأنا أكرهه".

وتقول الأم: "إن أكلت طعامك ستخرج إلى حديقة الحيوان".

فيجيب الطفل: "لا. لنذهب إلى حديقة الحيوان أولاً ثم آكل بعد ذلك".

وبين الإلحاح والوعد والرفض والإصرار تدور مباراة حامية. وتنتهى بأن يأكل الطفل بعض الطعام ليبدأ هو رحلة إلحاح من نوع آخر. إنه التساؤل المختلط بصوت التوسل والتذكير: "ألن نذهب إلى حديقة الحيوانات".

إن الطفل يطالب بحقه من الرشوة. إنه قد أكل، لا لأنه جائع ولكن لأن الأم وعدته بالذهاب إلى حديقة الحيوانات. ويستطيع الطفل بلون من المثابرة والمناورة والإصرار أن ينقل أقفاص حديقة الحيوان فوق رأس أمه وأبيه. إنه يسير ويحمل رأيه الوعد الذى لم

يتحقق. لقد أكل لأن هناك وعداً. والوعد لم يتم تنفيذه. هنا تقول الأم للأب: "يجب أن نأخذ الولد إلى حديقة الحيوانات". ويقول الأب الذكى الذى يراقب موقف الطفل من أوله: "هيا نلعب مع قطة الجيران".

ويأتى الطفل ذو الثلاثة أعوام إلى القطة ويحاول أن يربت على شعرها فتنفر منه وتنكمش وكأنها ستهاجمه. فيربت عليها الأب أو يربت عليها ابن الجيران فتستكين، وتتحرك القطة بعيداً، فينظر الطفل إليها نظرته إلى كائن غريب، ويقول: "صارت القطة صديقتى". ومن بعد ذلك قد يأخذ الأب الطفل إلى منطقة تجرى فيها حفريات للشوارع لأن هناك ماسورة مياه جديدة يتم تركيبها مثلًا. فيشاهد الطفل الجرافات والمحركات الكبيرة و"يبحلق" فى هذه المعدات ثم ينتابه الملل فيطلب العودة إلى المنزل.

وفى المنزل يمكن للأب أن يفتح كتاباً لقصص الأطفال ويقرأ فيه للابن بصوت مرتفع وبتمثيل، وهنا يشعر الطفل بسعادة بالغة فينتهز هذه الفرصة ليبدأ بتنظيف أذنه بقلم رصاص، وينتبه الأب فيصرخ فى الطفل، ويتمادى الطفل فى الانزعاج فيبكى وينفجر بركان عدم الصبر فى صدر الأب فيوسع ابنه ضرباً، ويقول: "لقد كنت لك كالأراجوز أيها اللعين.."، ويبكى الطفل وينام وتنتابه الكوابيس فيستيقظ صارخًا وتضرب الأم كفًا بكف وتحاول تهدئة الطفل، ويرى الأب نظرات الاتهام فى عيون الأم؛ فيقول ليبعد عن نفسه نظرات الاتهام تلك: "إنه ولد مدلل. إنك تفسدينه بالاستجابة لكل رغباته"؛ فتقول الأم: "إنك أنت الذى تفسد الولد بالانتقال من الحنان المبالغ فيه إلى القسوة".. ويصمت الأب ويفتح الطفل عينيه ليجد أمه وأباه معه فيصمت وينام ويصمتان فينامان.

وفى مثل هذا الجو المضطرب يعلن الأب لنفسه: "أنا لا أصلح أن أكون أباً.. كيف أربى ابنًا وأنا بلا تجربة؟"، وقد تقول الأم لنفسها: "أنا جلبت لنفسى وجع القلب. كان يكفى أن أصدق زوجى عندما قال لى بعد إنجاب ابننا الأكبر أن لا داعى لمزيد من الأبناء". ورحلات الندم والقلق تنتقل بسرعة إلى أعماق الابن. أنه يشعر أنه كائن منزعج فيتمادى فى الإزعاج. ثم إنه يشعر أن الأب والأم قد ألقيا به فى الحضانة وتركاه دون أى سبب.

إن هذا النمط من الآباء والأمهات قد ارتكب بتصرفه هذا عدة أخطاء منها:

– **الخطأ الأول:** هو إحساس الوالدين بعدم أهليتهما للقيام بمهمة الأب والأم. إن هذا الإحساس يجب أن نزيله من حياتنا فوراً، لأننا إذا كنا قد أنجبنا طفلاً وربيناه، فقد نكون اكتسبنا قليلاً من الخبرة فى تربية الأبناء. وإذا كنا لم ننجب بعد فيحسن بنا أن نتذكر أن التربية لا تحتاج نظريات وإنما تحتاج إلى إحساس. إن الإحساس هو الذى هدى الإنسان

إلى أن له ربًا قبل أن ينتبه الناس إلى أن الله قد أرسل الرسل، وعندما جاء الرسل صدقوا وآمنوا، وبعد ذلك جاءتهم الغفلة؛ فقادهم الإحساس إلى ضرورة الإيمان حتى لا يعم الفساد الكون، وتوالى الموكب الرسالى حتى خاتم الأنبياء. إذن فالهداية إلى أن للعالم خالقًا كانت موجودة، وهذه الهداية وحدها كانت كفيلة بأن تجعل البشرية تصدق الرسل. فما بالنا بتربية الأطفال؟ إنها ليست أمرًا عسيرًا؛ فهى لا تحتاج منا إلى إعلان هذا القدر من العجز.

– **الخطأ الثانى:** هو ربط الطعام بجائزة ما. يجب أن تعرف أن إعلانات التليفزيون والصحف ومحلات الحلوى تقتنص من دخل الآباء الكثير. ومادام الطفل يلهو بفمه المشغول بالحلوى ويصمت عنا؛ فنحن نعتبر أن ذلك هو المطلوب، ثم يأتى موعد الطعام ليجد الطفل نفسه غير قابل لتناول الطعام. إن علينا أن نراعى عدم تقديم أية ألوان للطفل نظرًا لضررها على أسنانه، وعلينا كذلك أن نراعى عدم تقديم أية ألوان من الأطعمة المحفوظة داخل أكياس أو زجاجات المياه الغازية، لاشتمالها على مواد حافظة لها وعلى ألوان الصباغة، إذ قد ثبت علميًا ضرر هذه المواد الملونة وتلك المواد الحافظة على صحة الإنسان. وتزدحم الآن شوارع ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وهولندا بالاحتجاج على تفشّى الطعام المحفوظ، سواء للكبار أم للصغار. أما بالنسبة للمياه الغازية فنحن نفسد بها أمزجتنا وأمزجة أطفالنا. إن العالم الغربى يتجه الآن إلى احتساء النعناع والقرفة واليانسون، لا بل إن اليابانيين يقدمون الملوخية كشراب قادم من الشرق رغم أن الملوخية، كما نعلم جميعًا، طعام لا شراب، ونحن نبتعد عن كل ما هو شرقى ونتشبث بزجاجة المياه الغازية التى تتكون من غاز ثانى أكسيد الكربون وقليل من الجلوكوز ومادة ملونة ورائحة الفاكهة. وقد يشرب الطفل البالغ من العمر ثلاث سنوات زجاجة أو زجاجتين من هذه المياه الغازية مثلًا، ثم يتناول الطعام، رغم أننا نستطيع أن نمنع الطفل لمدة ساعة ونصف بعد وجبة الإفطار من تناول أى شئ ثم نقدم له فاكهة أو خضارًا طازجًا نظيفة أو "ساندويتشًا" من الجبن أو البيض.

أما إذا كان الطفل ممتنعًا عن الطعام، فقد يكون ذلك بسبب ارتفاع درجة حرارة الجو. ومادام الطفل لا يشكو من أية أعراض مرضية فلا داعى للانزعاج، شرط أن نمتنع عن "سد فم الطفل" بأية حلوى يطلبها، إذ أنه سيعود إلى تناول ما تقدمه الأم له. ومن أغرب الملاحظات التى يعلنها خبير التغذية الأستاذ الدكتور عثمان جلال، رئيس معهد التغذية بالقاهرة، أن الطفل العربى فى بلاد الخليج يعانى من سوء التغذية بينما يعانى

الآباء من كثرة الغذاء! وعندما استوضحته عن تلك المفارقة قال لى: إن الطفل فى دول الخليج يأكل دون خطة غذائية فيأكل ما لا يفيد، فى حين أن الأب والأم يأكلان فوق حاجة الجسم من البروتين والنشويات. وهناك حالة خصام لا مبرر لها للفواكه والخضراوات الطازجة فتكون النتيجة انتشار سوء الهضم بين الكبار وانتشار سوء التغذية بين الصغار!

– **الخطأ الثالث:** هو الذهاب بالطفل فى نزهات لا يرغب فيها الأب أو الأم. إنها ألوان من التنزه التى تشبه العقاب للكبار، إنها محاولات من الكبار للحصول على صمت الصغار لا محاولات للتفاعل مع الأطفال. وكذلك يمكن أن ينفجر عدم الصبر كقنابل موقوتة فى صدور الأمهات والآباء.. وهذا أمر مرفوض.. إن علينا أن نخصص أوقاتًا للترفيه مع الأبناء.. صحيح أن لنا أعمالنا وصحيح أن لنا مشاغلنا، ولكن من الصحيح أيضًا أننا نشعر بالأسى عندما نسمع عن انحراف شاب فى السادسة عشرة من العمر أو إدمانه للمخدرات أو خروجه عما يعتبره المجتمع أساسيًا. ومهما كانت مشاغلنا فلابد من أن نخلق لأنفسنا متعة التواجد مع الأبناء وأن نعرف أننا نتعلم منهم وأنهم يتعلمون منا. إن فى داخل كل طفل قدرًا هائلاً من الحكمة نحتاجه نحن الكبار كما أن فى داخل كل منا طفلاً يرغب فى الانطلاق للعب مع الصغار. إن التنزه مع الأطفال ليس عقابًا نوقعه بأنفسنا ولكنه حق طبيعى لنا ولأطفالنا.

– **الخطأ الرابع:** يجب أن نذهب بالطفل إلى الحضانة منذ العام الثالث، لأن بقاء الطفل مع أمه قد يكون مرهقًا لها جدًا. ثم إن الأم قد تترك الابن مع الخادمة وليس مع المربية. فليست لكل الأسر تلك الإمكانات لتعيين مربية متعلمة حاصلة على قدر من التدريب العلمى الكافى للتعامل مع الطفل. ولذلك فذهاب الطفل إلى الحضانة أمر مرغوب فيه شرط أن يكون الذهاب إلى الحضانة بالتدريج، بمعنى أن تقضى الأم مع الطفل ساعة من اليوم الأول ثم تغيب عنه ساعة وتعود لتجلس معه ربع ساعة أخرى ثم تنصرف. وفى اليوم التالى تجلس معه نصف ساعة ثم تتركه لمدة ساعة وتعود ثم تتركه ليذهب مع والده فى الصباح إلى الحضانة. إنه بذلك يتعلم الانغماس فى مجتمع جديد.

– **الخطأ الخامس:** هو تبادل الاتهامات بين الأب والأم حول أسلوب تربية الابن. إن هذا الجو المحموم بالإحساس بالعجز يجعل الزواج نفسه محل اهتزاز وعدم ثبات. ورغم أن الزوج أحب الزوجة قبل الزواج ورغم أن الاثنين تعاهدا كثيرًا على الحب والإخلاص، وتدعيم هذا الحب لا يأتى بالبحث عن متهم، ولكن بأن نعلم أن كلاً منا مسئول عن تربية الابن شرط أن نناقش معًا الصواب الذى نعتقده والخطأ الذى نظنه وأن نعرض الأمر على

الطبيب المعاون مع الطفل يجعل الطفل يتعلم أن الأب والأم يرتبطان معًا برابطة الحب له ورابطة الحب بينهما وهذا ما يدفعه إلى الاطمئنان العاطفى اللازم له حتى ينضج نفسيًا.

أخى: أقول إنه ليس من المطلوب أن تصحب معك ابنك فى رحلة للترفيه عنه وتحس من خلالها بالنكد والضيق لتصرخ آخر النهار فى الطفل ولتعاقبه. إنك بذلك تزرع فى نفسه قدرًا من التوتر أنت فى غير حاجة إليه. والطفل نفسه فى غنى عن التوتر أو التعب فى نهار طويل وممل. إنه يحتاج إلى نظرة حنان منك بعد فسحة قصيرة تشعر بعدها أنك سعيد لمجرد التواجد معه.

خذ قلبى واعطنى ابتسامتك

مهمة الزجاج الأمامى فى كل سيارة أن يحمى السائق من عواصف الهواء.

ويحرص كل سائق على أن يكون زجاج السيارة نظيفًا لامعًا.

وتختزل شركات صناعة السيارات كل خبرات العلم لتجعل الجالس خلف المقود يستمتع برؤية واضحة إلى الدرجة التى وضع فيها صانعو السيارات شاشة كمبيوتر يمكن أن يرى الإنسان من خلالها ما أمامه وما خلفه.

والأب والأم هما قائدًا سيارة العمر. وليسترجع كل منا خبرة تعلمه لقيادة السيارة للمرة الأولى. إن الواحد منا يمسك بعجلة القيادة وكأنها لص يكاد يفر ولا بد من تسليمه إلى الشرطة. ومن بعد أن يتدرب الواحد منا على اتزان حركة أقدامه على مكبح السيارة ودافع البنزين فى الموتور وعلى فاصل الحركة وعلى تحريك عصا غيار السرعة، عندها تصبح قيادة السيارة عملية آلية.

لكن ماذا تفعل عندما ترى ابنك هو فى الخامسة من عمره يمسك مسمارًا فى يده ويحاول تجريح زجاج العربة؟

وماذا تفعل عندما ترى ابنك الذى هو فى سن السابعة تمتد يده إلى حافظة نقودك ليأخذ منها قدرًا كبيرًا من النقود ويدعو أصدقاءه فى المدرسة إلى أكبر وليمة حلوى؟

وماذا تفعل عندما يخفى ابنك تقريره الدراسى ويعلن لك أن المدرسة لم تعطه أى

تقرير شهرى وأنه ناجح فى كل المواد، ثم تفاجأ بالهاتف يدق فى منزلك ليخبرك المسئول فى المدرسة أن ابنك "يزوغ" من المدرسة وأنه راسب فى كل المواد الدراسية المقررة له؟

أنت هنا فى حالة غيظ وتردد وإحباط، وتتمنى تلقائيًا أن تعاقب هذا الابن.

أنت تريد أن تعاقب هذا الابن الذى حاول إفساد زجاج السيارة بالمسمار.

أنت تريد أن تعاقب هذا الابن الذى "أخذ" أو "سرق" من حافظة نقودك بعضًا من المال.

أنت تريد أن تعاقب الابن الذى أخفى عنك تقريره المدرسى وهرب من المدرسة.

وإذا سألت العلماء الأكثر تخصصًا فى مجال تربية الأطفال فإنهم يسألونك ببساطة ماذا كان رد فعلك فى اللحظة المباشرة لرؤيتك ابنك وهو يخدش زجاج السيارة بمسماره؟

فإن كانت إجابتك هى مجرد الانزعاج دون أن تعاقبه على فعلة بالتوبيخ واللوم وشرح فائدة زجاج السيارة ومحاولتك سؤاله عن دافعة إلى القيام بمثل هذا العمل المزعج جداً.. إذا كنت مجرد منزعج وحائر ومتردد وتتساءل عن أية نظرية فى التربية يجب أن تعتمدها فى مثل هذا الموقف فأنت مخطئ جداً، لأنك دون أن تدرى تقوم بأعظم إفساد لابنك. إنك من حيث لا تدرى تجعله فى موقف لا يميز فيه بين الصواب والخطأ. لذا عليك أن تعاقبه على الفور ليعرف أن هناك حدوداً للسلوك فى الحياة يجب ألا يتخطاها.

صحيح أن من حقك بعد عقاب الابن أن تعرف أنه يشعر بالغيرة من أخته التى تصغره سنًا وأن المقارنات التى تعقدها أنت بينه وبين أخته التى هى أصغر منه سنًا تجعله يمقت هذه الأخت ويتذكر دائمًا أن هذه الأخت قد سرقت منه الأضواء، لكن عليك بعد ذلك أن تعدل فى سلوكك تجاهه بعد حادثة خدشه زجاج السيارة بالمسمار لتعلمه كيف يقوم بتنظيف السيارة ولتعطيه مبلغًا صغيراً من النقود فى كل مرة يقوم فيها بتنظيف السيارة من الداخل أو الخارج. لكن من الصحيح كذلك أن عليك ألا تتردد فى عقابه على الفور إذا ما أخطأ فى حقك بتجريح زجاج السيارة.

وأى عالم فى التربية أو علم النفس أو الطب النفسى لن يعترض على عقابك لابنك الذى رأيته يأخذ مبلغًا من المال من حافظة نقودك.

يمكنك أن تضربه عقابًا لا غيظًا. ويمكنك أن تؤنبه بحدة لا بمزيد من تجريحه كإنسان. ولكن ذلك لا يمنعك من أن تسأل نفسك: "كم هو عمر ابنى الذى أخذ النقود من المحفظة؟ وحتى إذا كان بين الثانية والرابعة من العمر فهو يعيش مرحلة ضبابية بين التمييز وعدم التمييز. وإذا كان قد أخذ شيئًا يخص طفلاً آخر فى الحضانة فيجب إقناعه حينها بأن

يعيد ما أخذه إلى صاحبه وأن يعتذر له لأنه احتفظ بالشئ الذى يخص زميله لمدة من الوقت.

أما إذا كان الطفل فوق سن السابعة فهو قد أخذ من جيبك النقود ليقول لك: "أنت لست صديقى وكذلك أمّى. وأنا أعيش فى عزلة وأعانى من مرارة الإحساس بالوحدة، وإنكما معًا مسئولان عن ضرورة رعايتى لا عن مجرد تقديم الهدايا واللعب، وعليكما إقامة الحوار بينى وبينكما دون أن تغرقانى فى المقارنات المزعجة عن تفوق الآخرين على فى كل شئ، وفى الحديث عن خيبتى التى تفوق كل وصف".

وبإمكانك أن تحلل الأمور وتفهم مشاعر ابنك، ولكن مادام الخطأ قد وقع فلا بد من العقاب.

وأما إذا كان الابن قد أخفى تقريره الشهرى فهو كذلك يستحق العقاب، ويجب أن يتم إيقاع العقاب على الفور وبحزم إنما دون مبالغة. وبعد ذلك يمكنك أن تعرف أن ابنك قد أخفى تقريره الشهرى عنك لأنه لا يحب المدرسة ولأن المدرسين كثيرًا ما يوجهون له ألفاظًا جارحة. إننى لا أنسى المرة الأولى التى أخفى فيها ابنى التقرير الشهرى عنى. لقد حرمته من المصروف ومن رؤية التليفزيون ومن زيارة المتاحف. ولكنى درست أسباب هذه الظاهرة وعرفت أن من عيوبى أنى كنت أخاف من جبروت أبى وأنا طفل، لذلك كنت أتفوق فى بعض العلوم التى يكرهها هو وأهمل مواد أخرى يحبها هو. كنت أتفوق فى الرسم والشعر واللغة العربية وأهمل العلوم والحساب واللغة الإنجليزية. كنت أقاوم جبروت أبى بخيبتى المقصودة فى المجالات التى حاول أن يجبرنى على إجادتها. وعندما وعيت الحقيقة البديهية، وهى أننى أتعلم لأن الإنسان يجب أن يتعلم ليعيش فى المجتمع، بدأت أسير فى دراستى سيرًا طبيعيًا، وبدأت رحلة بحثى وراء "خيبة ابنى"، فعرفت أن هناك مدرسة سمعت من ابنى أكثر من مرة أن السبورة تلمع أمام عينيه وأنه لا يرى المكتوب عليها فقالت له: "أنت أعمى". وعندما توغلت فى حياة هذه المدرسة عرفت أنها مطلقة حديثًا وأن زوجها يحرمها من رؤية ابنها الذى هو فى عمر ابنى. فطلبت من مديرة المدرسة أن تساعد المدرسة فى مواجهة مشاكلها بدلاً من أن تعاقب أبناء الغير. وصحبت ابنى إلى الطبيب ليقيس له قوة إبصاره وعرفت أن قوة إبصاره ضعيفة. فأخذته إلى صانع النظارات ليختار له الإطار الذى يفضله للنظارة. ولقد قاوم ابنى هذه النظارة الطبية كثيرًا وتحملت رحلة مقاومته لها، ورأيته ذات مرة يلقى بها على الأرض بهدف كسرها فلم تنكسر، وعاقبته على ذلك، ثم عرفت منه أنه يطلب إلينا وضع برنامج غذائى له ليقوى بصره. فأخذته إلى

الطبيب. وبدأ ابنى يتعلم الحقيقة الأساسية عن العلم، وهى أن يتعلم لا من أجلى ولكن من أجل أن يخوض غمار التجربة فى المجتمع مسلحًا بما يضمن له الاستقلال عنى.

إذن نحن فى تربية أبنائنا لا نبحث عن نظريات نستوعبها أولاً ثم نطبقها. فقد قام آدم بتربية قابيل وهابيل ولكن قابيل، بسبب من حسده، قتل هابيل واضطر إلى التعلم من الغراب ليوارى سوأة أخيه. وأولاد قابيل لم يرتكبوا حماقة القتل وإن تحول الصراع إلى منافسة. إن قدماء الصينيين تنافسوا على بناء السور وأجهدوا أنفسهم لحماية بلادهم. وقدماء العرب قاموا بتربية الأبناء على الفروسية والرحيل وجميل الاستماع إلى الشعر. والمصريون القدماء قاموا بتربية أبنائهم على التقاط الحدس من حقائق الطبيعة التى عاشوا فيها. ومن المؤكد أن تواجد البشرية حتى الآن كان نتيجة قيام الآباء والأمهات بتربية الأبناء، ونتيجة محاولتهم معرفة المختصر المفيد والموجز الرشيد فى التربية. ولكن رد الفعل الفورى النابع من الحب والحزم أمر أكثر أهمية من كل النظريات العلمية التى نشأت فى أى زمان وأى مكان.

أقول ذلك وفى ذهنى حكمة أساسية قالتها لى أمى العجوز عندما سألتها عن أهم نظرية فى نظريات التربية طبقتها فى حياتها فى أثناء تربيتى وتربية إخوتى فقالت: "خليها على الله، كنت أربيكم على مبدأ بسيط هو: خذ قلبى واعطنى ضحكتك. كنت أحاول أن أجعل كل واحد منكم طفلاً سعيدًا". قلت: "ولكنى لا أنسى أنك عاقبتينى عقابًا شديدًا لأنى رميت بالطعام فى سلة المهملات". قالت: "لأنك قمت بعمل غير أخلاقى؛ وهو إهدار لجهد الفلاح الذى زرع الأرز والبطاطس، وإهدار لمال أبيك الذى اشترى لنا هذا الأرز وتلك البطاطس ومعها اللحم، وإهدار لتعبى أنا طول النهار فى المطبخ لأعد لكم الطعام. لقد عاقبتك لا لأنى أكرهك، ولكن لأعلمك كيف تحترم جهد الآخرين".

ومبدأ أمى هو المبدأ الصحيح: "خذ قلبى واعطنى ابتسامتك"، وأى تردد فى عقاب الابن على الخطأ والتفرغ للسؤال عن النظريات هو الذى ينشئ أطفالاً مدللين دائمى اللجاجة والإزعاج.

إننى أنظر أحيانًا إلى زوجتى وهى تطعم طفلى الصغير، فأجدها تقوم بنفس حركات أمها عندما كانت تطعم ابنى الكبير، فهى تمد شفتها السفلى إلى الأمام وترفع شفتها العليا إلى أعلى وكأنها هى التى ستأكل. وفى أغلب الأحيان أجد أن زوجتى تعلمت هذه المسألة من أمها منذ أن كانت فى الثالثة من العمر عندما كانت تراها وهى تطعم أخاها الصغير الذى صار طيارًا.

إننا نعرف أنه "نبرة الصوت" التى ينطق بها الأب مع ابنه هى نفس "النبرة" التى سمعها من أبيه.

وكبار الأطباء النفسيين والعلماء المتخصصين الذين وضعوا كل نظريات التربية يعرفون أنهم تبرموا من أبنائهم فى بعض المواقف وتصرفوا مع أبنائهم كما كان آباؤهم يتصرفون معهم فى مثل تلك المواقف.

إننا نعرف أن خيال الابن والبنت منذ العام الثالث يبدأ رحلة تقمص السلوك من الأب ومن الأم. إن الطفل يتخيل كيف سيشعر عندما سيكون له أولاد يتصرفون تصرفًا مزعجًا. وبالتحديد، فإن الابن يحتفظ فى خياله بألوان السلوك المختلفة، كما أن البنت تفعل الشىء نفسه تتعلم عن أمها إنكار الذات وكيفية تربية الأطفال.

إننا نفرح _على سبيل المثال _عندما نسمع كلمة "ماما" و"بابا" من فم الطفل للمرة الأولى، ونظل نكرر الكلمة أمامه بنفس لهجته حتى يعيد نطق الكلمة؛ وهو يفعل مثلما نفعل نحن بالضبط: إنه يلتقط منا صورة السلوك ليطبقه بعدما يكبر، وينجب أبناءه.

ونحن عندما نعلم أبناءنا كيفية الفصل بين ما يملكونه، وبين ما يملكه الآخرون نقوم بما كانت تقوم به مدرسة الحساب فى سنوات الدراسة الأولى عندما كانت تضع أربعة كراسات مع أحمد وتضيف إليها الكراسات الخمسة التى يملكها حسام وتعلمنا أن المجموع هو تسعة كراسات، تم تصر على إعادة كراسة كل تلميذ إليه. ونحن نفعل ذلك عندما نعلم الطفل كيف يحترم حاجات غيره.

وحتى عند بلوغه مرحلة المراهقة قد نسمع طلبًا للابن فنرفضه تلقائيًا، وقد نقرص أذنه، ونجيب على أسئلته الصعبة بحزم يعرف تمامًا أنه حزم نهائى. هذا الحزم التلقائى يقى المراهق نفسه من دوامات تمرد يكرهه هو فى قرارة نفسه.

إن ولادة الطفل وإن كانت تصاحبها آلام ومتاعب إلا أننا نفرح بذلك العضو الجديد فى الأسرة.

والطفل عندما يتم فطامه من ثدى الأم أو من زجاجة التغذية الصناعية فهناك _أيضاً _متاعب وآلام ولكنه يستمتع بنفسه كإنسان استقل أخيرًا عن لون الطعام الواحد وصار قادرًا على أن يأكل مثل الكبار.

والطفل عندما يخرج إلى الحضانة يصادف بعضًا من المتاعب والآلام ولكنه يتعرف على مجتمع أوسع من مجتمع الأسرة ويتفاعل معه.

والطفل عندما يذهب إلى المدرسة الابتدائية يصادف بعضًا من المتاعب والآلام ولكنه

يتعرف على العلوم والخبرات الإنسانية التى تتيح له المزيد من التفاعل مع المجتمع.

والطفل عندما يمر من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة يصادف بعض المتاعب والآلام، أى متاعب وداع الطفولة ومسئولية استقبال دوره الجديد كشاب أو شابة.

والأب والأم، طوال هذه الرحلات، يعيشون دائمًا فى حال انتباه وترقب طامحين أن يكون ابنهما له شخصية متميزة مغزولة من سلوك الأب والأم معًا.

والنظريات _نظريات التربية _لا تؤدى إلى أكثر من تعميق للمعرفة، لكنها ليست كل المعرفة.

ولذلك فأنا دائمًا مع قول أمى ونظريتها الفريدة: "خذ قلبى واعطنى ابتسامتك".

سيمفونية رائعة اسمها

تعليم الابن فن الحب !

فى كل طفل شئ من الجاذبية لا تقاوم.

مغناطيس من السحر يجذب الكبار إلى الصغار.

وهذا المولود الذى لم يبلغ الشهر الثالث بعد، يمتلك قوة غير مرئية تدفع أى إنسان ناضج إلى احتضانه واللعب معه.

وحتى هؤلاء الكبار المعروفون بالجمود وعدم الانفعال تجذبهم عيون الطفل الواسعة وابتسامته الصاخبة فيتكسر قناع الجمود ويعلو الانفعال وجوه هؤلاء الجامدين فيبتسمون لهذا الطفل الوليد.

فما الذى يجعل الفطرة الأولى للطفل مانحة للحب وجاذبة له؟

إن السماء تلح علينا بأن نفهم الهدف من هذه الحياة كلها عندما يتكرر أمامنا الدرس اليومى، أعنى ولادة الطفل ثم نموه إلى أن يصل إلى الشهر الثالث فتطل ابتسامته على كل من حوله وتجذب عيناه كل من يراه. السماء تقول لنا إن الهدف من الوجود على هذه الأرض هو أن يحب بعضنًا بعضًا.

لكن صانعى الحروب والذين يستفيدون من إفساد الإنسان يهزمون من خلال الضعف البشرى اللغة الأولى فى الحياة وهى لغة الحب. ومع ذلك فالدرس يتجدد ولا ينتهى، بل يطرح علينا سؤالاً دائمًا هو التالى: كيف ننشئ طفلاً ليكون محبوبًا وقادرًا على أن يحب كل من حوله؟ وكيف يمكن أن تكون محبة الطفل للحياة عميقة وكريمة وليست سطحية أو

مجرد ديكور اجتماعى، وأن يكون الحب فى قلب الطفل عميقًا بحيث تتحول الطاقة التى فى أعماقه إلى تعاون مع من حوله فيهزمون آلام البشرية، بدلاً من أن يتسببوا فى إيلام بعضهم بعضًا.

إننا نلمس فى حياتنا آثار أى شخص محب لنا، والبشرية من خلال رحلة تحررها من فسادها كانت تجد فى الأنبياء الذين بعثتهم السماء رموزًا قوية للحب والعطاء، فموسى عليه السلام أحب قومه فأنجاهم من عذاب فرعون ، واحتالوا عليه بالخديعة والكذب وعبادة العجل فهداهم، وخرجوا على طاعته لكنه قادهم من عذاب فرعون، واحتالوا عليه بالخديعة والكذب وعبادة العجل فهداهم، وخرجوا على طاعته لكنه قادهم إلى بصيرة الإيمان.

وبعد موسى زاد ضلال بنى إسرائيل وأفسد الناس الكون بكراهية لا نهاية لها، فكان عيسى _عليه السلام _كأعظم محام عن الحب، إذ ترافع فى المهد عن أمه رادًا على اتهامات السوء، وأثبت براءتها وهى البتول، وترافع عن الخاطئة مريم المجدلية لا لينفى عنها الاتهام ولكن ليذكر كلاً منا بجريمته: "من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر". وكان هذا التركيز وحده كفيلاً بدخول المجدلية إلى آفاق الإيمان الرحبة. ثم كانت الرسالة الخاتمة التى هى أعظم ما وهبه الله للبشرية من منهج حياة يصون الحب فيكفل بقاء الكون عامراً؛ تلك هى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

إن حب إنسان لقومه يجعل الناس يأتلفون ويشعرون بالراحة ويلمسون السعادة فى أعماق نفوسهم ويمكنهم من أن يكونوا قادرين على إقامة صداقات قوية وطويلة الأمد، فينمو المستقبل بين أيديهم بثبات وجودة، وتصبح علاقاتهم فى العمل مفعمة بالتعاون، وتنتشر فيهم روح الاحترام التى تفجر المواهب وتجعلهم أكثر قيمة فيعرفون قيمتهم وترتفع مكانتهم بين الآخرين ويرتفع مستوى منافساتهم إلى نوعية خلاقة فيتجنبون المنافسات الهدامة.

إن إنسانًا ينشأ على قيمة الحب هو إنسان يضع كل شئ فى مكانه الصحيح. إنه يختار شريكة عمره على أساس التواصل العاطفى والعقلى وحيوية التقدير الجنسى بين الاثنين. بل إن الانسجام بين الرجل والمرأة فى المجتمع المحب يصل إلى درجة رائعة بإمكاننا أن نتخيلها، ذلك أن البشرية لم تصل حتى الآن إلى المجتمع المحب الكامل. إننا نكتشف فى علاقة الحب المستمرة والعميقة بين الرجل والمرآة الآلاف من الأفعال التلقائية التى تنبع من خيال المرأة فيستجيب لها الرجل، أو تنبع من خيال الرجل فتستجيب لها المرأة. ونحن نرى أن الزواج المبنى على الحب يرسى أسس السعادة بثبات، وكما قلنا من

قبل، ينشئ أطفالاً أكثر سعادة وانفتاحًا على العالم. إن هناك أمواجًا من الحب تحيط بالرجل والمرأة والطفل، والأطفال الذين جاءوا من علاقة حب يقوون الروابط الروحية والمادية بين الأب والأم.

وغريب أمر الحب فى هذه الحياة، فلا أحد يشبع منه، وكل من يحصل عليه يشع بدفئه وصفاته على من حوله.

ولكن هناك وجهًا سلبيًا للحب، إنه التسلط. فعندما يكون أحد الزوجين متسلطًا فهو يفرض جبروته على الطرف الآخر ويعتقد كل قرين أن الطرف الآخر يحب الأطفال أكثر منه.

وكثيرًا ما نسمع كلمة قاتلة للحب فى نفوس الأبناء، الكلمة التى تأتى على لسان المرأة مثلاً فتقول: "إننى أعيش مع زوجتى الديكتاتور من أجل الأطفال".

إن الأطفال قد لا يسمعون هذه العبارة من أمهم ولكنها تنتشر بسرعة فى العلاقة بين الأبناء من جهة وبين الأب والأم من جهة ثانية. إن الأطفال يبدأون فى تلك الحالة رحلة الانتقام والضجيج والالتواء والسلوك المزعج. وكذلك يسبب الأطفال هذا الضجيج وينشأ فيهم ذلك الالتواء عندما يقول الأب كلمات من مثل: "إننى أتحمل الحياة مع هذه المرأة من أجل الأطفال". إن الأبناء يحبون أن يعيش الأب والأم معًا فى حالة حب وأن تستمر العلاقة بينهما قوية ومتينة، كما يفضلون أن تكون علاقتهم بالكبار على أساس من الحب والتعاون، ويتخوفون من أن تتحول الكراهية _كراهية أحد الزوجين للآخر _إلى ثقل على أكتاف الأبناء.

وعندما تكون العلاقة مفعمة بالتنافر بين الزوج والزوجة فلنا أن نتوقع أطفالاً غير مبالين إلى الصداقة مع غيرهم، وأن نتوقع كبارًا ينظرون إلى العالم نظرة عدم ثقة، وأن نرى ألوانًا من السلوك تثير الخصومة والتنافر، وأن نرى أشخاصًا يتميزون بالبخل أو المكر، وأن نسمع فى عيادات الطب النفسى عن آلام هؤلاء وعن اشتهاء كل منهم، إلى حد الجنون، أن يحب أحدًا وأن يجد من يحبه.

وهكذا نجد أن الطفل الصغير يختبئ عمليًا داخل جسد الكبير. نعم، فكل منا يحمل طفولته داخله. وهذا الطفل الصغير يسعى إلى نيل الحب.

وكل طفل يحب أن يكون محبوبًا ومحبًا، وإلا فإن الطفل سيلجأ إلى إزعاج من حوله لتنبيههم لحاجته إلى الحب.

وجرس الإنذار بضرورة الحب يدق عندما يأتى الأب المرهق من عمله ويتجه إلى سرير

الطفل ذى الستة أسابيع ليناديه فيبتسم له، وعندما يبلغ طفله الشهر الخامس من عمره فيرى السعادة على ملامح الوليد من مجرد مخاطبته. وكلما كبر الأطفال زادت العوامل التى تؤثر فى قدرتهم على منح الحب وتلقيه.

وهناك فوارق بين طفل وآخر. هناك الطفل المنفتح على العالم، وهناك الطفل الحساس بالفطرة.

وإن لنا أن نعرف الأساس المهم الذى نكرره دائمًا وهو أن الطفل يفتح عينيه منذ الشهر السادس ويبدأ بامتصاص صورة العالم الذى سوف يحيا فيه، حتى إذا كان الأب والأم ممتلئين بالعاطفة تفجرت فى الطفل طاقة الحب لكل الناس إلى درجة يفترض فيها الطفل أن كل الناس فى هذا العالم من نفس طراز أمه وأبيه، تربط بينهم الصداقة والحنان والألفة.

لذلك فكثيراً ما أقول للآباء الذين نشأوا فى ظل الحضارة الغربية المعاصرة والتى تلجم العواطف وتكبتها وتفرض على الأب أن يصرخ فى وجه ابنه: "كن رجلاً ولا تبكِ"، أو تفرض عليه أن يمتنع عن احتضان ابنه حتى يعلمه _كما يحب _كيف يشب ويقف على قدميه دون اعتماد على الآخرين.. أقول لهم إن هذه التربية الجافة أمر مرفوض لأنها تقسى مشاعر الأبناء وتجمد ينابيع العطاء فى أعماقهم.

وفى المقابل يجب ألا نتمادى فى الاحتضان والقبلات وخصوصًا فى زماننا الذى ينقل إلى الأطفال صوراً مفضوحة عن العلاقة بين الرجل والمرأة.

إن علينا أن نحتضن الأطفال ولكن لا ننسى أبداً أن الصبى منذ العام الثالث يتجه بكل الإعجاب إلى أمه، كما تتجه الفتاة بالإعجاب إلى والدها.

ولابد من أن تكون هناك حدود متوازية من الاحتضان والقبلات، فلا يصح أن نمنع أبناءنا من ذلك، ولكن لا يصح أيضًا أن نسرف معهم فى ذلك.

إننى كثيراً ما أسمع عشرات الآباء يشكون من آبائهم عاملوهم بجفاء فانعكس ذلك على سلوكهم فيما بعد، فصاروا آباء متسيبين عاطفيًا ولا يستطيعون السيطرة على أبنائهم، بل ينفذون كل ما يطلبه الأبناء منهم. وكثيراً ما سمعت من عشرات الأمهات أن التدليل المبالغ فيه هو الأمر الممكن الوحيد لبناتهن، لأن القسوة السابقة من أمهات هؤلاء الأمهات كانت كفيلة بإنتاج جيل متسيب العواطف.

إن الأم تعتذر بالتدليل الزائد للابنة عن عدم معرفتها بكيفية التعامل معها. إنه بحر الحيرة الرهيب الذى يغرق فيه الآن أجيال من الآباء والأمهات الذين لا يعرفون كيفية

التحكم فى تربية الأبناء.

إن إنشاء عمارة من الطوب و الأسمنت أمر يحتاج إلى تعاون بين المهندس والعمال والفنيين لتكون العمارة صالحة بعد ذلك لأن يسكنها أناس آخرون.

وإنشاء طفل على مقدرة لعطاء الحب وأخذه مسألة تحتاج إلى الإحساس المتوازن من الأب والأم معًا.

إن الابن هو اللحن الذى نعزفه نحن الآباء والأمهات، وعلينا أن نعزف هذا اللحن بثقة واقتدار، ونحن نستطيع أن نفعل ذلك بمنتهى الهدوء لأن هذا اللحن طويل جداً.

إن عمر تربية الأب والأم للابن لا يقل بحال عن واحد وعشرين عامًا، وهى أطول سيمفونية معزوفة بأنفاس كلّ أب وأم وأحلامهما وتجاربهما.

نعم الطفل يتمرد

احتجاجا على الأوامر المتضاربة !

عجيب جداً أمر الطفل.. تتوسل إليه يعاندك، وتتحدث إليه كصديق فيطيعك، وما بين العناد والطاعة رحلة اسمها التنافس.

وقد تندهش أنت أيها الأب عندما تعلم أن الطفل الولد يأتي إلى العالم ومعه رسالة من السماء وهي: "أنا قادم لأنافسك".

نعم.. فالابن يدخل في منافسة مع أبيه، وأول ميدان للمنافسة هو قلب الأم. إن الطفل يتحدث جاداً عن الارتباط بأجمل نساء الأرض وهي أمه.

ونعم أيضا أيتها الأم.. إن الابنة تنزل من أحشائك ومعها رسالة من السماء وهي: "أنا قادمة لأنافسك". وأول ميدان للمنافسة هو قلب الأب. إن الفتاة تتحدث جادة عن الارتباط بخير فرسان الأرض وهو الأب.

ونحن نسمع في زمن الصداقة المليئة بالتوتر أن المراهق يقول لأبيه في لحظة صفاء: "أنا أقوى منك". وقد يستعرض الابن عضلاته أمام أبيه كما نسمع الابنة المراهقة تقول لأمها في لحظة صفاء: "أنا أكثر منك جمالا"، وتحاول أن تقيس خصرها مقارنة إياه بخصر الأم.

وقد يتقوقع الأب والأم بعيداً عن التفاعل مع الأبناء الصغار ويكتفيان بإقامة صلات بهم عن طريق الهدايا، وقد يجيئان بعبارات من مثل: "إن سمعت كلامي سأحضر لك

حصانا"، و"لو ذهبت إلى دورة المياه سآخذك إلى الحديقة"، و"عندما لا تضرب أختك سأشتري لك الكثير من الحلوى".

والابن منذ الشهر السادس يستطيع أن يميز صوت أبيه وصوت أمه، ويستطيع أيضًا أن يتفهم مشاعر الأب والأم. إن المساحة التي تفصل بين جسم الأب وجسم الإبن الوليد منذ الشهر الثالث تمتلئ بلغة أخرى غير الكلمات. إنها لغة الإحساس مباشرة. وإذا كان هذا هو حال العلاقة بين الوالد والطفل، فما بالنا بعلو لغة الإحساس بين الأم ووليدها. إن الأطفال لا يرضعون بأفواههم فقط، ولكنهم يرضعون العلاقة العاطفية أيضًا من الأب والأم عن طريق النظرة واللمسة والإحساس.

ولذلك لا داعي للنفاق مع الأطفال، بمعنى أن لا داعي لأن تظهر خلاف ما تبطن علاقتك بابنك.

إن حالة النفاق التي تقول فيها عكس ما تحس تنتقل إلى مشاعر ابنك بطريقة غريبة. إنه يحس أنك تحبه بصعوبة، فيتصرف مع العالم بتقبل الحب بصعوبة. إنه المرآة العاكسة لمشاعرك، فضلاً عن أنه مغزول وراثيًا منك ومن أمه. ومن الأفضل أن تكون واضحًا في علاقتك مع ابنك، وأن تنظر إليه بانفتاح عاطفي. صحيح أنك تفكر في الصعوبات التي تملأ هذا الزمان من صراع دول وصراع مجتمعات، وعدم أمان تشعر به في عملك، واختلال سعر العملات وارتفاع أسعار الأشياء، وصحيح أيضًا أنك أنت شخصيًا نشأت في زمان اضطربت فيه المقاييس. فإذا كنت قد ولدت أنت في الربع الثاني أو الثالث من القرن العشرين، وصار لك أبناء في الربع الثالث والرابع من القرن العشرين، فأنت تستطيع أن تسأل والدك ووالدتك عن زمان تربيتك وتنشئتك. لقد كان زمانًا مضطربًا أيضًا من وجهة نظر أمك وأبيك.

إذن فإن الزمان دائمًا مضطرب. صحيح أن المشاكل في عصرنا تضخمت، وأن وسائل المعلومات تضاعفت، وقدرات الإنسان ازدادت، وصارت البشرية الآن تعاني من ضعف الأقوياء، بعد أن كانت في الأزمنة الخوالي تعاني من قوة الضعفاء، صحيح كل ذلك.. ولكنك الآن مطالب بحب ابنك لا على ضوء الخوف، ولكن على ضوء الثقة. والثقة إنما يتم بناؤها بالخطوات البسيطة.

الثقة لا يتم بناؤها علي سبيل المثال بأن نترك الطفل الذي يبلغ عامًا واحدًا من العمر يلعب في غرفة مزدحمة بالأثاث وعلي المناضد تماثيل نادرة وتحف من الزجاج القابل للكسر ومنافض سجائر وولاعات، أو أن نتركه في غرفة تركت فيها الوصلات الكهربائية

ملقاة علي الأرض. من المؤكد أن الطفل في مثل هذا العمر يكون في حالة استعداد لقفزة كبرى في عمره. إنه يتعلم المشي، أى أنه ينتقل من الزحف على أربع إلى الوقوف على القدمين. وهي مغامرة كبرى، ولا مثيل لها في إثباته إرادته. إن الطفل لا يمكنه أن يستمع إلى الأوامر بعدم لمس التحف الزجاجية المنشترة في المكان الذي يسمح له الأب والأم أن يوجد فيه. إنه فى أثناء تعلم المشي يجد الحافز الداخلي لإتقان عملية المشي، وهو سيلمس بالتأكيد كل التحف التي أمامه وسيعرضها للكسر، كما أنه قد يعبث بأدوات الكهرباء وبالأسلاك، ولن تنفع عندئذ الصيحات الزاعقة التي تحذره من لمس الأشياء القابلة للكسر أو التوصيلات الكهربائية.

إننا يجب أن نساعد الأطفال دون زعيق أو صراخ، بمعنى أننا يجب أن ننظف لهم المكان الذي يوجدون فيه من الأشياء القابلة للكسر أو التوصيلات الكهربائية. وقد تقدم العلم فصنع أدوات كهربائية تحمي الأطفال، لا بل إنهم توصلوا إلى صناعة مفاتيح كهرباء تفصل التيار الكهربائي بمجرد لمس أي كائن حي لأي سلك كهربائي. وإذا كانت هذه المنتجات فوق طاقة الأسرة المادية، فلا أقل من الانتباه جيداً وجدياً لحماية الأطفال من الوقوع في تناقضات الأوامر المتضاربة. إنه يلقى التشجيع حتى يتقن تعلم المشي، ويتلقى في الوقت نفسه الأوامر بعدم لمس الأشياء وإلا سيتعرض للعقاب. إن هذه الأوامر المتضاربة تجعل الطفل يتمرد ويتصرف طبقًا لما تمليه عليه اللحظة، إنه قد يكسر التحف النادرة أو يلمس أسلاك الكهرباء. وقد لا يفعل الطفل ذلك لكنه بالتأكيد يعلن عن ضيقه بالأوامر المتناقضة.

ولنا أن نعرف أن الطفل سيتعلم بالتدريج أن يبتعد عن الأشياء التي لا يجب أن يلمسها. ولكنه لن يتعلم بالصراخ في وجهه. إن الكبار عندما يصرخون في وجوه الأطفال لا يفعلون أكثر من توجيه الدعوة للطفل لأن يتحدى أكثر، وأن يستمر في السلوك السيئ أكثر. إن الطفل يتمادى حتى يعرف إلى أي حد يمكن أن يصل الصراع بينه وبين الكبار. وفي هذه الحالة على الأب أو الأم أن يتقدم بهدوء لتحذير الإبن من الخطر وإبعاد الأشياء الضارة عنه بلون من الحزم وعدم الضيق.

إننا نحن الكبار لا يجب أن نتمادى في الصراخ بالأوامر المتناقضة، لأننا نثير بذلك تحدي الأطفال ونفجر فيهم الميل الطبيعي للدخول في معركة مع الكبار، وبعد ذلك يشعر الطفل بالذنب، كما يشعر الكبار أن في ذلك لونًا من الخلاف يستهلك أعصاب الطرفين معًا، الابن كطرف أول والأب والأم طرف ثان. ثم يشكو الكبار بعد ذلك بمنتهي الضيق من

"أن كل سلوك يسلكه هذا الطفل يسبب لنا الضيق". والحقيقة هي أن الباعث المسبب لهذا اللون من الضيق هو إغراق الأطفال في التشجيع على لون من العمل كالمشي مثلًا، في الوقت نفسه الذي يتم فيه إغراق الطفل بالتحذيرات من ألا يفعل كذا وكذا.

وهناك مثل تقليدي عن هذا الخلاف تعرفه كل عائلة مع كل طفل. إنه تدريبه على التوجه إلى المرحاض لقضاء الحاجة. أو استعمال "إناء قضاء الحاجة". صحيح أن التقدم العلمي أتاح للأمهات والآباء إمكانية الحصول على ألوان من اللفافات التي تحمي الطفل من البلل فى أثناء التبول، وتمكنه من أن يقضي حاجته في هذه اللفافات. ولكن لا بد من تعويد الطفل على فعل ذلك بنفسه وقضائه الحاجة في المكان المخصص لذلك كما يفعل الكبار. ونحن نجد الطفل ذا الثمانية عشر شهرًا يتمرد كثيرًا على هذا التدريب. وقد ينتهي الطفل إلى عناد شديد. والذين قرأوا كتاب الدكتور "سبوك" الشهير: "رعاية الطفل الوليد" في طبعاته الأولى لاحظوا أنه نصح الكبار عندما يلمسون العناد من الطفل أن يمتنعوا عن محاولة تدريب الطفل على استعمال دورة المياه أو "إناء قضاء الحاجة" لفترة من الزمن وبعد ذلك يعاود الكبار تدريب الطفل من جديد.

لكن الدكتور "سبوك" لاحظ أن عددًا كبيرًا من الآباء والأمهات استسلم لهذه النصيحة وعاش الفترة الفاصلة بين التدريب الذي جعل الطفل عنيدًا والتدريب الثاني في قلق وتوتر وخوف. وهذا التوتر والقلق والخوف ينتقل بالإحساس إلي الطفل، وقد ترتبك أمعاء الطفل نتيجة لحيرته: هل يقضي حاجته أم لا؟

ويعاود الكبار تدريب الطفل لكنه يقابلهم بعناد وصلابة أكثر. إنه يقاوم نتيجة الاستثارة المبالغ فيها عند الآباء والأمهات لتدريبه على قضاء حاجته. إنه يشعر في أعماقه بالتنافر والإحساس بالذنب معًا. ولذلك فإن تدريب الأطفال على شيء ما، يجب أن يستمر. لقد تراجع الدكتور "سبوك" عن رأيه السابق، ولكنه يطلب من الآباء والأمهات أن يقوموا بتدريب أبنائهم الصغار على قضاء الحاجة بلون من الهدوء والثقة والاستمرار، ومع الاستمرار والتكرار يربي الأطفال على التدريب الصحيح مادام الآباء غير مبالغين في التوتر والانزعاج. وسيضبط الأطفال أنفسهم وهم يفعلون ما يتوقعه الكبار منهم. وسيلاحظ الأطفال أنهم يحظون بامتيازات نتيجة سلوكهم وهم يتصرفون طبقا لما يتمناه الآباء والأمهات منهم. ويقارن الطفل في أعماقه بين "مميزات العناد وعدم التعاون مع الكبار" و"مميزات الطاعة" وسيجد أن جو الأسرة العاطفي ينسجم بالطاعة أكثر مما ينسجم بالعناد. صحيح أن العناد قد يثبت للطفل قوته فيرى الكبار مترددين وحائرين.

وصحيح أيضًا أن الانسجام العاطفي في محيط الأسرة يقول للطفل: "فلنكف عن مضايقة بعضنا البعض. إنك طفل كبير بعض الشيء. والكبار يعرفون استخدام دورة المياه ولا يلمسون الأشياء الخطرة، ولذلك فعليك أن تسلك سلوك الكبار".

وهنا يمكن للأب والأم أن ينظرا إلى الطفل ويقولا له كلمات الاحترام والحب، وأن يتلقى مكافأة على عدم التمرد. ولا أعني بالمكافأة قطع الحلوى أو الخروج لنزهة، ولكني أعني بها المكافأة الكبرى التي يتعطش لها الطفل دائمًا وهي أن يحس أنه محبوب من أمه وأبيه وأنهما يثقان به.

أنت قائد صارم أيها الأب

وعليك أن تكون كذلك !

الانضباط مفقود في زماننا.

واللهاث وراء متطلبات حياتنا غير المستقرة ينعكس على أطفالنا بشكل أو بآخر.

فإذا كان الأب في العصور السابقة يضع نظاما حديدياً للأدوار المختلفة لكل فرد من أفراد الأسرة، فقد اختلفت في زماننا الأدوار، وصار كل منا يؤدي الدور الذي يحبه لا الدور المفروض عليه.

فالأب في العصور السابقة كان يترك الأم في المنزل ويترك لها عملية تأديب الأطفال. وقد تلقي المرأة بالكرة في ملعب الأب فتخيف الأطفال من آبائهم.

ورأينا نماذج لكبار يقسمون أنهم لم يشاهدوا والدهم مرة واحدة وهو يقبلهم أو يدللهم. إن الأب هو ذلك الذي يمسك بسوط (كرباج) وهمي تهدد به الأم فيسكت الأطفال عن السلوك الذي لا توافق عليه الأم.

كان إيقاع الحياة كإيقاع عربة الحنطور التي تمشي الهوينا وتجري في حدود اللهو الآمن. أما الآن فهذا زمن السيارات والطائرات والصواريخ والحروب والحديث عن النقود والمخترعات. لقد ازدحمت البيوت بآلات التكييف والغسالات الأوتوماتيكية وطهو الطعام بأشعة الليزر، وصار الأب يدخل إلى منزله منهكًا من العمل الذي يقوم به لتوفير أقساط البضائع الجديدة التي عرضها التليفزيون،وصارت الأم تناقش معه مسألة توفيرها مبلغًا من المال من عملها لتجديد ستائر المنزل مثلًا.

وهنا يقفز الطفل ذو العامين ليعبث بأنف الأب أو يستكشف سائر وجهه أو يجرب ثني ذراع نظارة الأب فيكسرها. إن عرق الأب وتعبه بل وكرامته تتعرض للعبث الطفولي. وكذلك قد يتعرض عقد من اللؤلؤ في عنق الأم إلى الانفراط نتيجة جذب الطفل لهذا العقد بعبث مفاجئ.

إن البيت مسرح المكدودين من الكبار والعابثين من الصغار. والطفل الذي خرج من جولة عناء سابقة يشعر ببعض الهزيمة تترسب في أعماقه. وهنا ماذا يمكن للأب أن يفعل؟ وكيف يمكن للأم أن تتصرف؟

إننا نحن الآباء في حاجة إلي استكشاف فن القيادة الصارمة وبحزم مع الأطفال.

وعندما يمسك الطفل بنظارة أبيه يكون على الأب ألا يستسلم أو يقف متوسلاً للابن أن يترك النظارة. إن على الأب أن يتقدم بهدوء وأن يمسك النظارة من يد الابن ويستخلصها منه. وإن بكى الطفل أو صرخ فعلى الأب أن يقول له بمنتهى الحزم: "إن النظارة موجودة معي لأرى بها وليست من ضمن ألعابك". وإن تكرر عبث الطفل بالنظارة لا مانع على الإطلاق من أن يمسك الأب بيد الطفل ويضربه عليها دون غل أو توتر مبالغ فيه. ولنتذكر أن الطفل الصغير في حاجة إلى عقاب بسيط، ولكن علينا أن نعرف أن العقاب البسيط يحتاج إلى هدوء وثبات، ولا يحتاج أن تجعل الطفل سببًا لكل منغصات حياتك فتنفجر فيه وكأنك تنهال ضربًا على كل ظروفك الصعبة.

والطفل عندما يمسك عقد اللؤلؤ من صدر أمه يكون عليها أن تستخلص العقد من بين أصابع الطفل بهدوء. وإن تمادى الطفل فإن عليها أن تضربه بهدوء على يده أو على إليته. وعلى الأم أن تعرف أن العقاب البسيط يتطلب أن نمنع الطفل من القيام بما يؤذينا أو يؤذيه فقط لاغير. وعلى الأم ألا تضرب الطفل كأنه سبب كل عذاباتها.

إن علينا أن نتجنب "الإزاحة" في عقاب الأبناء، والمقصود بالإزاحة تلك العملية النفسية التي ينتقل بها العقاب من طرف أقوى منا إلى طرف أضعف منا.

إن الأب قد لا يجرؤ على توجيه النقد لرئيسه مثلاً فينفعل لأي سبب ويضرب الإبن، والأم قد لا تجرؤ على مواجهة زوجها ببعض من أخطائه فتضرب الإبن وكأنه الممثل الحقيقي للأب.

إن "الإزاحة" يجب أن تختفي من تعاملنا مع أطفالنا وعلينا نحن أن نحرص على الوعي الشديد عندما نتكلم مع الأطفال وعندما نعاقبهم.

إن الطفل قد يتكرر من الخطأ وقد يتلقى العقاب مرة، وثانية، وقد يركب رأسه إلى

عناد. هنا لا يجب أن نستسلم أو نتحفز أن نعتبر أنفسنا آباء وأمهات غير صالحين.

لا. إن علينا أن نبحث في هدوء عن مكمن الخطأ في علاقتنا بالابن، وأن نلاحظ أنفسنا لا باتهام أنفسنا ولكن بتحليل سلوكنا، وبأن نستكشف مواطن القوة والضعف فينا وبأن نعدل في سلوكنا.

إن القيادة تحتاج إلى أن تعرف أن الطفل كائن جديد في حياتها وأنه يتدرب على الحياة وسط تقاليد معينة علينا أن نحرص على تلقينها له بسيطرة وهدوء أعصاب وشجاعة مؤثرة، لا بشدة وتوتر وانفعال. إن الأب والأم هما مجرى نهر حياة الإبن. ومجرى النهر هو الذي يقود مياه النهر إلى المصب بهدوء.

إن القيادة لا تكون بالغضب دائمًا من أيِّ سلوك تافه، ولكن بتنبيه متجدد إلى أن الطفل يجب أن يفعل الأمر الصحيح.

والقيادة لا تكون بأن نتخيل أن أعباء الحياة بعد ميلاد هذا الطفل صارت لا تطاق، فالحقيقة هي أن الطفل جاء كرابط جديد يجعل الأب والأم يحبان الحياة أكثر وأكثر. إن الطفل جزء منا ونحن نفخر بمسئوليتنا عنه.

والقيادة لا تكون بأن نخلط بين العبث والجد أو أن ننتقل من المداعبة إلى العقاب. فالقيادة هي ألا نسمح للإحباط أن يداخلنا ونحن نعامل الطفل، وأن تكون المبادرة دائما في أيدينا، وألا نحتقر شأن الطفل كمجرد كائن صغير وألا نضخم في تخيل الوهم بأنه "يتآمر" علينا.

والقيادة تعني أن لكل شيء ميعادًا. فلا يصح على سبيل المثال أن نملأ وقت الأطفال بتقديمنا له الحلوى غير المغذية وزجاجات المياه الغازية، تمد الطفل بلون من الطاقة المزيفة التي لن تدفع جسمه إلى النمو والتي يفرغ منها جسمه عند اللعب.

وليتنا نمنع هذا الطعام والشراب المزيف الذي يبيعونه للأطفال ونستبدله بعصير طازج لأي فاكهة من الفواكه. وليتنا نتجنب العصير المعلب، لأن المواد الحافظة فيه قد تسبب ألوانًا من الحساسية للأطفال. ونحن نحب لأطفالنا أن ينشأوا بعيدًا عن أمراض الحساسية.

المهم أن نترك معدة الطفل تعمل وفق النظام الذي نعيشه نحن، فمنذ أول العام الثالث والطفل يأكل عادة مثلما نأكل نحن، أي ثلاث وجبات، ولكن الطفل قد يجوع أسرع منا، وهنا نعد له سندويتشات من ألوان مفيدة من الطعام.

ونحن في أوقات الطعام العادية لا يجب أن ننصب لأنفسنا فخًا، بمعنى ألا نقول للطفل: "ألا تريد أن تأكل"؟

إنه المفروض هو أن يتناول الطفل طعامه مع الأسرة، فلماذا نضع أمامه الاختيار؟

إنه قد يجيب على سؤالنا بالقول "لا، لا أريد أن آكل الآن" وبذلك نكون قد فتحنا على أنفسنا أبواب جدال ومناقشات لا لزوم لها، ويصر الطفل على موقف العناد. إن مثل هذا السؤال: "ألا تريد أن تأكل" ليس إلا فخًا ننصبه لأنفسنا ونقع فيه رغما عن إرادتنا، وهو ينتهي غالبًا بإحساس بالإحباط.

وعندما نجد الطفل في موقف صعب، كاقترابه من حرف سور الشرفة أو إخراج أكثر من نصف جسمه من الشباك، لا يجب أن نتجمد مكاننا ونصرخ في الطفل "لا.. لا.. لا". إن هذه الصرخات قد تخل بتوازن الطفل نفسه، ولكن يجب أن نتصرف بهدوء وسرعة لننقله من هذا المكان إلى مكان آمن.

يجب أن نربط كلامنا مع الطفل بالسلوك العملي من جانبنا فيتلقى الكلمات وكأنها أمر غير مباشر، وهذا الأمر غير قابل للجدال.

إن المناقشات العقيمة والتي ينتصر فيها الطفل علينا تسبب لنا الإحباط وتزرع في نفسه من بعد ذلك الإحساس بالذنب.. هذه المناقشات وما شابهها تفضي إلى توتر العلاقة العاطفية بيننا وبين أطفالنا.

إن تآكل الحب بين الآباء والأبناء كان يحدث في القرون السابقة لأن أيًّا من الأب أو الأم لم يكن ليضع مشاعر الإبن موضع الاعتبار. كان على الطفل أن يأكل في ميعاد مضروب، ولابد له أن ينفذ ذلك، وكان عليه أن يساعد في أعمال البيت منذ عامه السادس دون مناقشة، وكان عليه أن يصحب والده إلى العمل وأن يتصرف باتزان وثبات وإلا فهناك العقاب الصارم. وكان هذا اللون من السلوك يفجر طاقات عدم الاحتمال في نفوس الأبناء نحو الآباء والأمهات. ولست أنسى ذلك الأب الذي كان يزن كميات من الطعام لابنه حتى يأكلها رغمًا عن أنفه، وكان الطفل يقيء كل ما يأكله. إن هذا الطفل تمرد على أن يكون مجرد قالب يصبون فيه الطعام. وكان العلاج السليم لهذا الطفل أن نتركه لفترة من الزمن دون حلوى ودون أطعمة ذات سعرات حرارية مزيفة، وهذا يكفل لنا أن يأتي الطفل إلى ميعاد الطعام ليأكل مع الأسرة بالكميات التي يختارها هو.

أما في عصرنا هذا فإن الذي يسبب تآكل الحب بين الآباء والأبناء هو ذلك الإفراط في التسيب وخوف الآباء الشديد على حرية أبنائهم، وخوف الآباء الشديد من ممارسة قيادة الأبناء. وتكون النتيجة في الغالب حالة من الإحباط المشترك سببها أن الإبن أخذ مساحة من الحرية لا يعرف كيف يتصرف بها ولم يتدرب على التعامل معها، وأن الأب والأم أحس

كل مهما أنه لا يستطيع أن يسيطر على الإبن.

إن علينا نحن الآباء والأمهات أن نقدم بشجاعة وهدوء على ممارسة مهمتنا الطبيعية وهي أن يكون الواحد منا صارمًا دون قسوة، وأن يكون حازمًا دون جفاف، وأن يكون حنونًا دون انهزام أمام الطفل. وإذا تساءلنا أين نتعلم كل ذلك، فإننا نقول: نحن نتعلم ذلك بالتدريب والانتباه والقدرة واليقظة علي تعديل السلوك الخاطئ إلى سلوك مناسب.

أخطاء ابنك عندما تشبه أخطاءك .. لماذا تنزعج؟

المشهد هو عام ١٩٤٦. والفصل الدراسي منتظم جداً. تهامس الطلبة عن مدرس الحساب ـ هذاالمدرس العجوز المريض بالسكر والذي لا يسمح بأي خطأ على الإطلاق. العقاب عنده معروف وواضح. يخرج الطلاب من الصف ويقفون أمام منضدة المدرس ويمدون أكفهم ويضعونها على المكتب، ثم يضع المدرس قلماً من الرصاص مضفراً أصابع كل تلميذ ثم يبدأ المدرس بالضرب على اليد بأربعة مساطر معاً. وكان هذا العمل هو فاتحة كراهية علم الحساب بأكمله وكل ما يتعلق به، بل كان هو السبب في عدم معرفتي بما في جيبي من نقود، ولا أدري كيف نجحت في بقية الامتحانات في علوم الحساب. والسبب هو ذلك الديكتاتور الذي فهم مهمة المدرس بشكل خاطئ فأوجد عند عدد من التلاميذ ما يسمي بالكف عن التعلم والتوقف عن الفهم لما يقول. والسبب هو اختلال السكر في دم هذا الرجل، فقد صار يفهم مهمته في الحياة بشكل خاطئ ويعلم الأطفال ألا يتعلموا على الإطلاق. وكان من المعروف أن نسبة النجاح في الصف الذي يتولاه هذا المدرس تقل عن العشرين بالمائة.

المشهد هو عام ١٩٧٥. والفصل الدراسي ملئ بضجيج الأطفال، وابني هو التلميذ الصغير الذي يدخل السنة الأولى الابتدائية. فجأة، وقبل أن يخطو الطفل في طريقه إلى مكانه في الفصل، يتراجع مذعوراً باكياً، وتتقدم منه المدرسة لتلاطفه فينكمش بعيداً عنها

ويتجه إلى مكانه في الفصل، وفي آخر اليوم يقول لي: "إن مدرسة الحساب ترفض أن تجلسني في الصف الأمامي لأني أرى السبورة وهي تلمع فلا أرى ماذا تكتب عليها وتقول لي: "اذهب إلى الخلف يا أعمى".

وتنفجر إذ ذاك في داخلي نار صغيرة من شمس حارقة. إن اللعبة تتكرر من جديد. إن قسوة اللفظ الجاف تنهال على الابن الصغير لتجعله عاجزًا عن حفظ جدول الضرب. وبطبيعة الحال وجدت في هذه المدرسة نفس ملامح مدرس الحساب القديم. إنها تقسو على الأطفال ولكن بسبب آخر غير مرض السكر. إنها تقسو على الأطفال بسبب قسوة المجتمع عليها. لقد تزوجت وهي صغيرة وطلقها الزوج بعد أن ارتقى في تجارته وتزوج فتاة أجمل منها، ولأنها لا تنجب خرجت إلى الحياة تبحث عن عمل، فوجدت عملاً كمدرسة لعلم الحساب في مدرسة راقية. وكان ابني للأسف الشديد يشبه ابن زوجها من زوجته، فلذلك أخذت في اضطهاده.

لقد انتبهت إلى خطأ اجتماعي تم في حياة ابني الأول مع الخطأ الأول في حياتي. وبدأت أتذكر كيف انتصرت على خطأ المجتمع الذي علمني الحساب بواسطة رجل مصاب بخلل في التصور لأمور الحياة بسبب من مرض السكر. لقد انتبهت عندما كبرت أن الموسيقى، من حيث هي لغة، هي علم حساب خاص بالزمن. إن الآلات الموسيقية تخضع في عزفها إلى نظام حسابي دقيق.

لقد بدأت أفهم علم الحساب بعد أن استمتعت بقراءة تاريخ التآليف الموسيقي وحياة فاغنر، وبيتهوفن، وموزار، وسيد درويش، وأغاني الفلكلور العربية. ولم أجد وسيلة للقضاء على أخطاء مدرسة الحساب في حق ابني إلا بأن نقلت ابني من المدرسة. وبعد ذلك بدأت أحضر له شرائط أغاني فيروز فكان ينسجم تمامًا مع "ميس الريم" ويسعد تمامًا وهو يسمع موسيقى بيتهوفن، وبدأت أعلمه الحساب من خلال حساب سنوات التاريخ القديم والحكايات عن عدد الآلات الموسيقية التي تعزف وقصص عن كل أغنية وكل مسرحية غنائية.

وفاجأني ابني بموقف مختلف من الخطأ. إن أخطائي تنبع من أنني أقرأ أكثر من كتاب واحد في وقت واحد: كتاب في علم النفس، وآخر في التاريخ، وثالث في العلوم السياسية. وبدأت أشاهد ابني وهو يرتكب الخطأ نفسه: إنه يبدأ أعمالاً كثيرة ولا ينتهي من أي عمل منها، وتذكرت أن كثيرًا من الأعمال قد فسدت أو ضاعت قيمتها لمجرد الخلل الذي صار عادة، وصارت أعمالي الناقصة تتراكم على مكتبي. والشيء نفسه تعلمه ابني

مني دون قصد مني. إنني أضع تحت يديه كل ألوان الكتب الملائمة لسنه، فكان يقرأ من كل كتاب صفحة ثم ينتهي إلى كتاب آخر فثالث، ورأيت أن ذلك انعكس على أسلوب تحصيله الدراسي، فهو لا يتم أبدًا مذاكرة أي علم من العلوم. إنه يترك دائمًا أجزاء من كل علم. وتكون النتيجة أنه يرسب في بعض العلوم وذلك نابع من عدم إتمامه لأعماله.

في البداية ثرت في وجهه وعاقبته، ولكن أمه قامت بتنبيهي إلى أن الطفل يكرر نفس أخطائي. فلماذا أغضب منه؟

إنه لا يهتم بترتيب خزانة ملابسه ويلقي بفردة حذاء هنا وفردة حذاء هناك، ويظل كل صباح يلاحق الزمن من أجل البحث عن فردة حذاء ضائعة، تمامًا كما ألاحق أنا الزمن من أجل أن أجد المفاتيح أو حافظة النقود، أني ألقي بأي شيء في أي مكان ثم أبذل الجهد الكثيف من أجل أن أجد أشيائي الضائعة.

وبدأت أري بعيني أنني لا أربي أبني ولكن ابني هو الذي يقوم بتربيتي. لقد بدأت أضع أمام ابني نظامًا لحياتي، ومواعيد قيام محددة من النوم، ونظامًا لممارسة الرياضة قبل أن أخرج من المنزل صباحًا. وبدأت أدخل المنزل لأضع كل شيء في مكان واضح ومحدد: سلسلة المفاتيح في لوحة للمفاتيح، والجرائد في مكان الجرائد. أما الكتب فقد بدأت أضعها في المكتبة، وبدأت أضع قائمة بنظام عمل يومي. ووضعت أمامي أكثر ما أكره في هذه الحياة وهو المنبه الذي يوقظني صباحًا.

وبدأت أحسب مرتبي وأوزعه على بنود الصرف المختلفة.

وبدأت أنظم أعمالي فلا أقوم إلا بعمل واحد في وقت واحد، وبعد أن أنتهي من هذا العمل أبدأ بإتمام عمل قديم ناقص.

واكتشفت أن ابني يقلدني: صار يحدد مواعيدًا لكل عمل وكل شيء، وبدأ يضع الرياضة في قمة اهتماماته، وأهم من كل ذلك أنه بدأ يقرأ كتبه الدراسية ويتمها للمرة الأولى، ونجح بتفوق.

إن العلاقة بين الأب والإبن تثير التأمل، إنها منافسة _في جانب منها _يتخللها حب ودفء. وكذلك العلاقة بين الأم والابنة، إنها في ناحية منها عملية منافسة، ولكنها منافسة محاطة بالحب الدافئ.

والآباء أصحاب الطموح العالي يملكون أيضًا طموحًا عاليًا لأولادهم والأبناء يتفاعلون مع الطموحات العالية.

ومادام الأب يعدل في أخطائه ويصحح طموحه ويعيد ترتيب حياته بمرونة، فالابن

أيضًا يتقبل إعادة النظر في الأخطاء ويتعلم فن تصحيح الطموح ويعيد ترتيب حياته بمرونة.

إن الأب الواعي لنفسه ولسلوكه وكذلك الأم الواعية لنفسها وسلوكها يستطيعان الحياة مع الأبناء بثقة، ولا يأتي القلق ليدق باب القلب إلا عندما يوجد فعلاً ما يستحق القلق، وعندما يري أحدهما أن الابن أو البنت قاربت على الخروج عن الخط الصحيح.

هؤلاء الآباء والأمهات ينتبهون جيدًا إلى أخذ الأمور دائمًا في حجمها الطبيعي ولا يصنعون "من الحبة قبة" ولا يحومون حول الأبناء وكأنهم مجرمون صغار يقومون بالتحضير لجريمة ما. إن هؤلاء الآباء الواثقين بأنفسهم لا يقومون بالإلحاح دائمًا على الأبناء بل يتناقشون معهم بهدوء وتعاون ولا يقومون بمطاردة الأبناء على لا شيء وكل شيء.

والآباء السعداء يقومون بالتفاعل مع كل ابن على أساس احترام الاستقلال والمشاعر.

إن الإبن الثاني سواء أكان فتاة أم فتى ينال هذا الاستقلال تلقائيًا. ومن الرائع أنه لا يصاب بالقلق عندما لا ينال الاهتمام الكافي لأنه يملك في داخله الثقة بأنه قادر على طلب المعاونة من الأسرة الواثقة من نفسها إذا ما طرأ طارئ يستدعي ذلك. وهذا أمر مختلف قليلاً عن الطفل الأول الذي قد يحس بالخوف والفزع إذا ما أحس بفقد اهتمام والده وأمه به.

ونلحظ في بعض الأحيان أن الفتاة التي تكون هي الطفل الأول في العائلة، سواء أكانت اجتماعية أم إنطوائية، تخاف بعض الشيء من أن تكون مجرد دمية يديرها الآخرون. وتحيا هذه الفتاة لذلك في بعض التناقض الظاهري، فهي تحتاج إلى كمية كبيرة من الانتباه وتقاوم في نفس الوقت المصدر الذي يعطيها هذا الانتباه. إنها تخفي إظهار إعجابها قليلاً ثم تنهمر من بعد ذلك في عطاء عواطفها، وهذا ما أنبه إليه دائمًا أي خطيب لفتاة تكون هي البكر لأسرتها وذلك حتى لا يتهمها بالجفاف العاطفي.

وباختصار، أريد أن أؤكد أنه من السهل جداً أن نقول للآباء الجدد: "تعاملوا براحة أوسع وتفاعل دون توتر مع الإبن الأول". ولكن هذا لا يساعد الآباء،لأنه ببساطة يشبه دعوة شخص إلى الاسترخاء في المرة الأولى التي يقود فيها سيارة أو يمتطي صهوة جواد. ولكننا نحن الآباء والأمهات، يمكننا أن نقرأ وأن نناقش وأن ندرب أنفسنا.

وإذا كنا، نحن الآباء والأمهات، لم ننجب إلا طفلاً واحداً وقررنا ألا ننجب غيره أو شاءت الظروف فى أثناء وضع الطفل إجراء عملية جراحية للأم تمنعها من الحمل مستقبلًا،

فعلينا في هذه الحالة أن نصحب ابننا الوحيد منذ أن يتعلم المشي ليوجد بين جماعة من الأطفال فيتعلم منهم الأخذ والعطاء منذ البداية المبكرة.

والمربية في الحضانة يمكنها أن تهتم بالطفل الوحيد وأن تحاول أن تدربه على الاندماج مع غيره من الأطفال. كما يجب ألا يهمل الوالدان اصطحاب طفلهما الوحيد في بعض زياراتهما.

وأحب أن أقول أن ما أعرضه لكم من تجارب عن تربية الأبناء في الزمن الصعب ليست قضايا مقدسة كفروض الصلاة يجب أن تؤدى في مواعيدها.

لا. إنها مجرد تجارب تدعوك إلى الاستمتاع التلقائي من خلال صحبتك لأبنائك، لأن جوهر المسألة كلها هو المحبة وزيادتها وتقويتها دون اعتداء عاطفي من الكبار على الصغار ودون ابتزاز الصغار للكبار بحثًا عن حقوق ليست لهم.

لا تيأس أبداً وأنت تعامل

ابنك: هذا هو دستور التربية الصحيح

تمتلئ عينا الأم باليأس وهي تنظر إلى طفلها المزعج المتمرد غير المطيع الذي ينضح فمه بالعبارات غير اللائقة. إنها تنظر إليه وكأنها صارت أما لكائن شرير لا نفع منه ولا مستقبل له.

والابن الذي يعاني من هذه النظرات هو مجرد طفل في الرابعة من العمر، وهو يحس بمخاوف أمه ويحس بآلامها النفسية، وينتقل إليه شعور بعدم جدواه بالنسبة لأمه. إنه يحس بلون من النفور يخرج إليه من قلب أمه.

والطفل لا يطيق أن تنفر منه سيدة في هذا العالم بالنسبة إليه. إنها أجمل جميلات هذا الكون، ولا بد أن يفعل شيئًا حتى يستعيد عرشه.. وعرش الطفل هو قلب أمه.

ويحاول الطفل أن يستعيد هذا العرش، ولكن أمه بيأسها الظاهر منه تجعله حبيسا في قاع بئر جدرانه ملساء. إنه لا يستطيع بأمنياته وخياله أن يسترد مكانته عند أمه. إن عينيها تقولان له: "أنت طفل لا جدوى منك ولا يمكن أن تتحسن سلوكياً". وهذه هي أصعب نبوءة تخرج من قلب الأم، وهذه أيضًا أقسى رسالة يتلقاها الطفل من أمه، ولذلك فهو يندفع إلى المزيد من السلوك السيء، والمزيد من التمرد وعدم الطاعة، والمزيد من إزعاج الأم بكل وسيلة ممكنة وغير ممكنة، ويكرر بصوتٍ عالٍ كل العبارات غير اللائقة التي تؤذي والدته.

وتحاول الأم أن تضع الطفل في إطار السلوك السليم بالقسوة الممتزجة بالغيظ فتضربه أو تهينه أو تحبسه في حجرته لساعة أو أكثر أو تحرمه من كل الأشياء التي تسعده. ويندفع الإبن إلى المزيد من التمرد اللاشعوري فيحاول أن يعود إلى الوراء، إلي الزمن الذي كانت تهتم به أمه في كل صغيرة وكبيرة فيتبول لا إراديًا، أو ينطق الكلمات بطريقة خاطئة أو يزحف على ركبتيه ويديه وكأنه نسي المشي، وفوق ذلك كله ينفجر بالبكاء في كل ليلة فزعًا من النوم عندما تهاجمه الأحلام المزعجة.

وإذا بحثنا عن متهم وراء كل هذه الجرائم بكل تفاصيلها فإننا نجد متهما ظاهرًا بوضوح، وهو سوء استخدام علم النفس في فهم نفسية الأطفال.

إن بعضًا من رجال علم النفس أشاعوا أن شخصية الطفل ينتهي تكوينها بشكل لا يمكن تغييره عند بلوغه العام الثالث. وكان هذا لونًا من الخطأ البالغ. إنه خطأ الفهم وخطأ النقل وخطأ عدم الدقة العلمية في تناول أمور علم النفس.

إن البعض من هواة الأدب درسوا شخصية نيرون الذي أحرق روما وقالوا إن السبب في فعلته هذه هو طفولته الأولى. كما أن بعضًا من هواة علم النفس درسوا سلوك الفئران وردود أفعالها ثم طبقوا ذلك تطبيقًا لا إبداع فيه على الإنسان. ويمكن القول إن مثل هذه التطبيقات التي لا تنظر باحترام إلى إرادة الإنسان لا تستحق منا حتى النظر إليها. إنها تطبيقات سخيفة لأنها تفترض بسطحية شديدة بعضًا من الأفكار وتحاول تعميمها على كل الأطفال، وفي هذا قسر لإبداع الإنسان. إن الإنسان مخلوق له إرادة وهو يستطيع أن يتغير عندما يريد ذلك.

إن مثل تلك الأقوال الشائعة عن انتهاء تكوّن شخصية الطفل واكتمالها عند العام الثالث من عمره كانت سببًا في زراعة اليأس في نفوس كثير من الأمهات والآباء بصورة لا تجعلهم يحاولون الاقتناع بأي محاولة لإصلاح علاقاتهم بأبنائهم.

وينسى كلّ أصحاب مثل هذه "النظريات الفاسدة" أن الأب والأم عندما يقتنعان داخليًا بفكرة ما عن ابنهما فإن هذه الفكرة تتسلل من نفس الأم والأب لتستقر وتصبح سلوكًا للابن.

إن سلوك الابن في جزء منه فطري، وهذا الجزء ما يلبث أن يتعزّز حتى يصير سلوكًا كاملاً وواضحًا من وجهة نظر الأب والأم له.

إننا مثلاً كأجيال "قديمة" نعامل آباءنا بدرجة من الاحترام الذي يحمل في داخله الحواجز. فبعضنا قد لا يجرؤ على أن يضع ساقًا على ساق أمام أبيه أو أمه، وبعضنا لا يجرؤ على أن يتحدث عن مشاعره العاطفية أمام الأكبر منه سنًا، ولكننا في عصرنا نجد

أن الأبناء يتصرفون بصداقة مع الآباء.

إنني لا أنسى وجه ابني وهو في الثامنة من عمره وهو يشاورني بهمس وقلق: "إنني في حيرة من أمر خطير للغاية. إنني حائر هل أحب زميلتي في الفصل أم أعتبرها صديقتي"؟ وسألته بهدوء: "وما الفارق بين الحب والصداقة"؟ فقال بألم رومانسي: "الحب هو أن تكون لي وحدي وأن تنفذ كل ما أقوله لها. أما الصداقة فتتيح لها أن تتكلم مع غيري من التلاميذ وأن أتكلم مع غيرها من التلميذات". ثم قلت لابني: "ولكنك في حالة اتخاذ قرار بأن تحبها، فلا بد أن تأخذ هي معك نفس القرار. فهل هي أخذت معك نفس القرار؟" قال ابني بصوت متألم: "لا. إنها تفضل الصداقة لأننا لسنا في عمر الزواج".

وقلت لابني: "أنا مع زميلتك في هذا الرأي لأن الحب منذ الثامنة سيطالبك بفرض نفوذك عليها، وقد تقوم بينك وبين أي زميل يتكلم معها معركة".

ووافقني ابني على هذا الرأي وهو يبكي.

إلى هذا الحد يمكن أن يناقش الأبناء آباءهم في زماننا هذا. وفي الشرق الأوسط والمجتمعات العربية نرى أن الشبان بإمكانهم الحديث عن مشاعرهم، وأما البنات فمازال الأمر مختلفًا بالنسبة إليهن، فهن لا يجرؤن في الغالب على الحديث عن عواطفهن أمام آبائهن وأمهاتهن، فالأب هو الذي غالبًا ما يطالب زوجته باستكشاف آفاق عواطف الفتاة. ولكن الأمر يختلف في أوروبا؛ ففي العواصم الكبيرة للبلاد الغربية تقول الأم لابنتها: "لك حق المغامرة العاطفية بشرط ألا يتم الحمل". ويمكن للفتاة أن تقول لأمها: "إنني أريد أن أذهب إلي الطبيب حتى يدلني على وسيلة مناسبة لمنع الحمل".

وفي السنوات الأخيرة أصبح مطلب الآباء والأمهات من المراهقين والمراهقات هو العفة، لا لشيء إلا لانتشار مرض فقدان المناعة المكتسب "الإيدز" AIDS وغيره من الأمراض الخطيرة.

ولكن ليس كل الغرب منحلاً وليس كل الأبناء والبنات فيه فاسدين وفاسدات. فالتربية الدينية مازالت عميقة ومنتشرة على اتساع الريف الأوروبي والأمريكي تمامًا كما تنتشر التربية الدينية على اتساع المدن والقرى من المحيط إلى الخليج. وما زال للآباء والأمهات زمام القيادة. ولذلك فالقول بأن شخصية الطفل تتشكل نهائيًا في نهاية العام الثالث من عمره هو قول خاطئ تمامًا، لأن أحداث الحياة تصقل باستمرار شخصية الإنسان.

إنني واحد من هؤلاء البشر الذين يعتقدون أن هناك استعدادًا فطريًا في كل طفل وأن هذا الاستعداد يجعل المزاج النفسي للطفل قابلاً للتطور والصقل باستمرار. فالانتباه يمكن

أن يوجد عند الطفل الذي يرقب والده ووالدته ويجد أنهما يفعلان كل شيء في ميعاد محدد ويتم كل منهما أي عمل يبدأه. والتراخي يمكن أن يوجد في سلوك الطفل عندما يجد أن والده ووالدته يتراخيان في أداء ما عليهما من أعمال.

والطفل الخشن الطباع لا بد أنه اكتسب هذه الخشونة من الوسط المحيط به، وكذلك الجرأة أو الانطواء أو الشكوى في كل شيء أو عدم الشكوى من أي شيء. إن هذا كله ينشأ من استعداد فطري عنده.

وينمو أي سلوك مما ذكرنا بحسب البيئة والظروف المحيطة. بل إننا نجد كلا من التوأمين يتصرف بشكل مختلف تجاه الأمر الواحد إذا ما تمت تربية كل منهما في مناخ مختلف.

والواقع أن العلم مازال حتى هذه اللحظات يحاول استكشاف آفاق الشهور الأولى في حياة الطفل ليعرف ما الذي يحدث فيها. والأطفال في الشهور الثلاثة الأولى يعطون انطباعًا بأنهم لا يشعرون بأي شيء مما يحدث حولهم. إن الطفل يلتفت إلى أي شيء كيفما اتفق ودون تركيز وكأنه يقول: "أين أنا"؟ وكأنه يجري مقارنة بين وجوده في هذا العالم وبين رحم الأم.

ويبدأ الطفل في الشهر الرابع والخامس في تعلم فحص الأشخاص بعينيه، فيستمتع بكل الموجودين حوله سواء أكانوا أصدقاء للأسرة أو أشخاصًا غرباء يراهم للمرة الأولى. وعندما ينمو الطفل ويبلغ من العمر عامًا أو عامين فإن موقعه يختلف من الآخرين.

وغالبًا ما ينزعج الأب من بكاء الطفل دون أى سبب فى خلال الشهور الأولى. إنني لا أنسى وجه الشاب الذي رزق للمرة الأولى بطفلة، وكان ينزعج من بكاء ابنته الصغيرة في شهرها الأول على نحو هستيري، رغم علمه أن من الطبيعي لها أن تبكي.

إن الأطفال في الأسابيع الأولى يمكن أن يرتفع بكاؤهم نتيجة عدم تكيف الجهاز العصبي والجهاز الهضمي، وهذا اللون من التكيف يأخذ بعض الوقت. والطفل في أسابيعه الأولى يبكي لأنه جائع، ولكن إن كانت أمه قد أرضعته فوراً فقد يكون مصدر بكائه أي ارتباك داخلي، أو الحاجة إلى قدر من الهدوء، أو الحاجة إلى تغيير ملابسه لتكون نظيفة غير مبتلة.

إذن فمسألة تكوين شخصية الطفل من خلال السنوات الثلاث الأولى هي نظرية قابلة للهزيمة من وقائع الحياة اليومية التي نشاهدها. ولذلك لا يجب أن نمتلئ بالتشاؤم من الطفل المشاغب، بل علينا أن نحاول البحث عن مفاتيح لعلاج هذا الشغب.

ابنك يعيد تربيتك مرة أخرى!

غريب جدا أمر الإنسان.. إنه في لحظة القوة يدعي أنه قادر على الحياة بمفرده، وهناك أسطورة روبنسون كروزو الذي استطاع أن يقيم حياة كاملة بمفرده على جزيرة في وسط البحر، وقبلها قصة حي بن يقظان.

والإنسان في لحظة الضعف يعرف جيداً أنه غير قادر على الحياة بمفرده. إنه في حاجة إلى المجتمع الذي يساعده ويسانده.

ومن الملاحظات التي تثير المرارة في المدن الكبيرة كنيويورك وباريس ولندن أن الإنسان لا يستجيب لاستغاثة إنسان آخر واقع في خطر ما. إن الإنسان في المدن الكبيرة مجرد فرد عليه الاهتمام بنفسه ولا يتعين عليه أن يهتم بالحريق المشتعل في بيت الجيران مالم تمتد ألسنة اللهب إلى البيت الذي يسكنه هو.

ومن القواعد السخيفة في هذا الزمان أن الإنسان عندما يتزوج في أمريكا على سبيل المثال، فهو يتفق مع شريكة عمره على كيفية الطلاق ـ إن أراد أحدهما الطلاق ـ وعلى ماسيأخذ كل منهما تعويضاً من الآخر، وعلى ملكية الشقة أو المنزل والسيارة وعلى من تكون له رعاية الأطفال. ويتفنن رجال القانون في وضع صيغ قانونية تتيح لكل مقبل على الزواج كيفية التخلص من شريك العمر دون أدنى خسارة ممكنة!

وغني عن القول إن مثل هذه الأمور فى أثناء فترة الرومانسية العاطفية الجاذبة بين

الرجل والمرأة تقلب الأمور رأسًا على عقب. فمن كنت تشتاق إلى عناقه لأنه سيكون سنداً لك طوال العمر قد يتحول إلى وحش دنيء في لحظة الوقوف أمام المحامي لقراءة عقد الزواج وكيفية التخلص منه.

إن شعار الحرية المطلقة على الرجل والمرأة يبدو براقًا للوهلة الأولى ولكنه يدفع الإنسان إلى عميق الألم في لحظات حصاد نتاج هذه الحرية. فمن الطبيعي أن نسمع عن "رجل مستغل وجشع وحقير وأناني".

وتأتي مثل هذه الكلمات على ألسنة النساء في لحظة الطلاق أو الانفصال إذا كانت المرأة قد خسرت كل شيء في لحظة الطلاق أو الانفصال لأنها وقعت قبل الزواج على وثيقة مسجلة عند المحامي على حقوق الزوج في لحظة الطلاق.

ومن الطبيعي أن نسمع من الرجال في أمريكا وفرنسا وإنجلترا كلمات مثل: "خائنة، جشعة، لصة، أخذت كل ثروتي لتعطيها لعشيقها". والسبب في ذلك هو أن الرجل قد وقع قبل الزواج على شروط قاسية للزواج والانفصال.

وهكذا يتحول الجسد الانساني إلى سلعة تحتاج إلى تأمين من الطرف الذي يستعمل السلعة سواء كان رجلا أم امرأة.

ومن الملاحظ أن الأطفال في الحضارات المعاصرة القائمة على الجشع يتعلمون رحلة الأنانية والغلظة والفظاظة والقسوة من لحظة تعريف المجتمع لهم لمعنى كلمة "الحرية". ذلك أننا نلاحظ مثلاً أن الطفل الذي ينشأ في مجتمع متدين لا يفهم كلمة الحرية إلا في ضوء كلمة "المسئولية"، وأن الطفل الذي يولد في مجتمع يحترم فيه الرجل المرأة وتحترم فيه المرأة الرجل لا يمكنه أن ينسجم مع معنى "الحرية" الموجود على ساحة المدن الكبرى في الحضارة الغربية المعاصرة.

إن الحديث السري الذي تخاطب به الحضارة الغربية الإنسان الذي يحيا فيها.. هذا الحديث السري يمكن أن نوجزه بما يلي:

إن أردت أن تكون سعيداً فعليك أن تكون أنانيًا، جشعًا، وأن تستغل غيرك بسند من القوانين، وأن تهرب من الأقوى منك حتى وإن كان الحق معك. لا مانع من أن تغتصب اللذة بأي طريق، ولكن احذر أن تكون مسئولاً عن هذه اللذة.

ويكفي للتدليل على ذلك أن كتابًا واحداً صدر في الأعوام الماضية لمؤلفة هي جاكي كولنز مازال يتربع علي عرش أعلى الكتب مبيعًا، وهو عن زوج يصطاد دائمًا للذته صديقات زوجته ولكن بحذر ودون أن تعلم الزوجة، وعندما تكتشف الزوجة ذلك تطلقه

وتسعى هي لالتقاط لذتها من الرجال بشرط واحد هو أن يكون كل منهم صديقًا للآخر وذلك لترى رحلة عجز الرجل في الدفاع عن الأنثى التي يسعد معها. وتحول هذا الكتاب إلى مسلسل تلفزيوني يشاهده مائتا مليون أمريكي وأوروبي. ومهما قيل عن التحذيرات بأن الأطفال لا يجب أن يشاهدوا مثل هذه المسلسلات إلا أن الآباء والأمهات يتفاعلون معها، الأمر الذي ينقل أثرها النفسي إلى الأطفال. إن الأب قد يقول للأم: "اشكري السماء لأنها رزقتك زوجًا لا ينظر إلى صديقاتك". والأم قد تقول للرجل: "يمكنك أن تخفض عينيك من النظر إلى صديقاتي وإلا فعلت مثلما فعلت بطلة المسلسل".

إن عفة الزوجين تتحول هنا إلي مساومة. وهذه المساومة يراها الطفل أمام عينيه فيحس بخطر داهم. يحس أن ارتباط أمه وأبيه هو ارتباط غير نهائي وغير دائم وقابل للانكسار. ويشعر في اللحظة أن علاقة الأب والأم هي علاقة غير مستقرة.

لكن ارتباط الرجل بالمرأة في المجتمع الشرقي يختلف. إن الأمومة في الريف والبادية العربية على سبيل المثال، لها وضع مميز ودور واضح الملامح. وفي المجتمعات ذات الثقافة الإسلامية غير المشوهة نجد أن المرأة كريمة مع نفسها وكريمة مع زوجها، وكذلك نجد الزوج كريمًا مع زوجته وكريمًا مع نفسه.

إن الثقافة الإسلامية بمعناها النقي تحرم على الرجل أن يهجر زوجته إلى عمل أكثر من ثلاثة شهور، وتأمر الرجل أن يساعد زوجته في أعمال البيت، وتأمر الرجل أن يلاعب ابنه حتى عامه السابع، ومن بعد ذلك ينصحه، ومن بعد ذلك يصاحبه. وإذا ما نشأت مشكلة ما بين الرجل والمرأة فالثقافة الإسلامية الصحيحة تقضي بأن للزوجة حقوقًا تجاه الزوج وتجاه المجتمع، وأن هناك نظامًا دقيقًا للانفصال بين الزوجين. وفوق كل ذلك هناك إطار من التسامح والحث على الكرم.

إن الحياة الزوجية بهذا الأسلوب تصبح رباطًا قويًا، وينعكس ذلك على أدق التفاصيل في حياة الأبناء الصغار.

إن القيم الإنسانية الراقية إذا ما استقرت في أعماق الأم والأب، فإنها تنتقل إلى الإبن.

ونحن نثق بأن في كل طفل جانبًا من الكرم والمثل العليا، وأن في كل طفل أنانية، ورغبة في السيطرة على كل من حوله. وعلى قدر تعامل المجتمع بقيم معينة فإن هذه القيم هي التي تسود في ثقافة الطفل.

إن الطفل هو مرآة الثقافة والسلوك الإنساني، فهو يعكس ما يراه في مجتمعه. فالطفل

الذي ينشأ في مجتمع ينتشر فيه الطلاق قد يسأل أمه: "متى تحصلين على الطلاق يا أمي"؟ قد يسأل الطفل هذا السؤال رغم أنه أمه تحب أباه وأن أباه يحب أمه.

والطفل الذي ينشأ وهو يسمع طلقة رصاص كل نصف دقيقة على شاشة التلفزيون قد يسأل والده: "متي تقتل مديرك"؟ رغم أن الطفل يعلم تمامًا أن مدير والده هو صديق للأسرة وأن الود يملأ المسافة بين الأب وبين هذه المدير.

إن حضارة "المكسب والخسارة" التي تحاصر الأطفال تجعلهم يفهمون الحياة على أنها ليست أكثر من أرقام. إن هذه الحضارة تنتج أطفالا متنافسين لا يحبون إلا الاستهلاك ولا يرون جدوى من لذة العمل والإنتاج.

إن الطفل المحاصر بأرقام الدرجات العالية في الدراسة هو طفل يتعلم للوهلة الأولى أن يقتحم المادة الدراسية ليحفظها في منافسة غير خلاقة مع غيره من التلاميذ ليتفوق عليهم. إنه لم يحب العلم ولم يتأمل العلم ولكنه عرف أن هناك أناسًا، هم زملاؤه وأترابه، يجب أن يهزمهم ويتفوق عليهم. والطفل المحاصر بأرقام أسعار الأشياء التي تعلو عن دخل أبيه، مثل السيارة الفخمة أو الملابس المستوردة من بيوت أزياء معينة، هذا الطفل يرى أن العمل ليس هو الوسيلة الأساسية للحصول على المكانة في المجتمع.

والطفل الذي يشاهد مباراة لكرة القدم ويرى الحماس بين المدرجات هو طفل لا يعرف أن الرياضة هدفها أساسًا تنمية الجسم وتنمية الروح، فهو يرى الرياضة وسيلة عدوان متبادل.

إن الطفل عندما يشاهد السباق الرهيب على الفوز بأشياء بلا قيمة حقيقية يندفع هو الآخر في هذا السباق. وما أكثر الأشياء التي هي بلا قيمة والتي يجري إليها الكبار، الكبار من الدول، والكبار من الأفراد على السواء.

إذن، فهل نحن نختار تنشئة أبنائنا على مبدأ المكسب أو الخسارة؟

إذا كنا نختار ذلك فنحن لا يجب أن نغضب عندما نشاهد الأبناء وقد كبروا على الأنانية.

أما إذا كنا نرغب في تنشئة أبنائنا على مبدأ التعاون مع الآخرين لإقامة مجتمع يحترم الفرد ويقدس حقوق المجتمع، فلنقم نحن الكبار بتربية أنفسنا في كل لحظة لنكون المثل والقدوة لأبنائنا.

هل من الصعب أن نعلم الطفل الكرم مع الآخرين؟

ما أروع هذا الطفل الصغير الذي تقدم له أمه قطعة الحلوى فيسرع باقتسامها مع أخيه الأصغر منه.

أقول: ما أروع هذا الطفل، لأنه طفل متخيل وغير موجود في الحياة الواقعية. فالأطفال يندفعون إلى ما يحبون من حلوى بصورة تجعلنا جميعا نتذكر حدائق الحيوان عندما تلتف القردة وتتصارع على أصابع الموز.

لكن هل من الصعب تنشئة الصغر علي الكرم؟ إن الإجابة على ذلك هي "نعم" و"لا" في آنٍ واحد.

نعم.. إن تنشئة الصغار على الكرم في عالم متنافس مسألة صعبة جداً. ولكن تنشئة الصغار على الكرم في عالم متعاون مسألة يسيرة للغاية.

فهل نحن داخل الأسرة متنافسون أم متعاونون؟ هذا هو السؤال الصعب الذي يجب أن يواجهه الكبار أولًا.

فإذا كان الأب يقوم من على المائدة ولا يساعد في رفع الأطباق، ولا يفكر إلا في توجيه الأمر بطلب كوب الشاي؛ فتسرع الأم لتضع الشاي على النار وتلهث لتأخذ الأطباق من على المائدة، ثم تلهث لوضع الأطباق في غسالة الأطباق، ثم تلهث لتراقب غليان الماء على النار، ثم تلهث لتنظيف مائدة الطعام، ثم تلهث لوضع بعض الشاي في الماء الذي

يغلي، ثم تخرج الأكواب النظيفة، ثم تحضر الشاي للأب الذي يقرأ الجريدة بكسل شديد وينظر إلى الشاي فيراه غامق اللون، فيقول للزوجة: ما هذا الذي تقدمينه لي لأشرب؟ إني أحب الشاي مصنوعًا كذا وكذا، فمتى ستعرفين مزاجي في شرب الشاي؟

إن الطفل الذي ينشأ في بيت تقوم فيه المرأة بكل العمل، ويقوم الرجل فيه بالكسل وإصدار التعليمات، هو طفل ينظر إلى دوره كامبراطور كسول يطلب رضوخ كل من حوله له.

والطفلة التي تنشأ في مثل هذا البيت تأخذ انطباعا سيئا عن وضع المرأة في المجتمع، وقد تخرج فيما بعد زعيمة نسائية من المطالبات بحقوق المرأة. وهذا ما حدث بالفعل مع كل زعيمات حركات تحرير المرأة، فقد كان الأب(في أسرة كل واحدة منهن) رجلا قاسيا، فظا، لا يحسن التعاون مع الزوجة، ولذلك تمردت عليه الابنة، وتمردت على كل رجل غيره، رغم أن "إيركا يونج" _وهي واحدة من أشد المتعصبات لحرية المرأة في الولايات المتحدة والتي كتبت روايات وقصصًا فاضحة تصور الرجل مجرد أرنب صغير يبحث عن برسيم اللذة في حضن المرأة _لم تتزوج إلا رجلاً أجبرها في لحظة ضعف أن تقول له "يا سيدي أنا خادمتك". وقالت "إيركا يونج": "نعم إنه سيدي لأنه يعلم أن جسدي ينجذب له فلا أملك مقاومة أمامه. إنني خادمة له بروحي وجسدي". وقد اعتزلت هذه السيدة الكتابة مدة عامين ومازالت مستمرة في العزلة حتى الآن، ذلك أنها تجاوزت الخمسين وهي تحيا في رحاب شاب في الثلاثين!

إذن، لابد من وجود أسرة متوازنة أساسًا لا يقوم فيها إنسان بدور السيد، وآخر بدور العبد. وهنا يمكننا أن نعرف أن لكل إنسان في المنزل عملًا، وأن لكل إنسان قدرة على المشاركة حتى نجعل حياة الأسرة أسهل وأجمل.

إن البلد الذي يستطيع أن ينشئ أطفالاً يحسون في أعماقهم بأهمية الآخرين ويمكنهم مساعدة بعضهم البعض، هذا البلد يستطيع في المدى البعيد أن يحل المشاكل الجادة التي تواجه الإنسانية حاليًا، سواء على مستوى الأفراد أم المجتمعات أم المشاكل القومية، وخصوصًا مشاكل الطلاق، والإرهاق العصبي، وكذلك مشاكل انحرافات الشباب، وغير ذلك من المشاكل.

وعندما نتوغل في أعماق الطفل نستطيع أن نلمس أن الكرم والقدرة على التعاون مع الآخرين يوجدان على مستويين: المستوى الأول، جهّزت السماء به كل طفل، أعني الاستعداد الطبيعي والفطري للاستجابة العاطفية لأي مشاعر ودودة توجد من حول

الطفل. ويظهر ذلك منذ الشهر الثاني لميلاد الطفل. إنه يبتسم بسعادة بالغة عندما يدلله الكبار، وإذا ما شعر الطفل أن كل من حوله يحبه فهو يتفاعل مع هذا الحب ويكن مشاعر صافية من المودة تجاه المجتمع المحيط به، ويمكننا أن نرى ذلك في محاولة الطفل الذي بلغ ثمانية عشر شهرًا أن يطعم أمه بعضًا من طعامه بنفس الطريقة التي تطعمه أمه بها.

هذا هو المستوى الأول من الحب وهو جانب فطري يمكن تنميته ليكون واقعًا سلوكيًا، وبهذا ينتقل الحب من المستوى الأول إلى المستوى الثاني وهو السلوك الدائم في المجتمعات على ضوء التفاعل العاطفي.

إن خيال الطفل يكتشف أولاً أنه محبوب وأنه يملك طاقة عطاء الحب. ثم ينتقل الطفل من حالة الخيال العاطفي إلى الترجمة العملية لهذه العواطف في الدائرة الاجتماعية الأوسع، وهذا ما نسميه باكتساب القدرة على العطاء. وهذا الكرم المبكر في الطفولة يكون محدودًا وعفويًا حتى العام الثالث من عمر الطفل. فالطفل قد يشارك غيره من الأطفال في بعض من لعبه، ولكن هذا الكرم قد ينقلب إلى نقيضه فيهجم الطفل على الطفل الآخر لمجرد أنه يلعب بلعبة من لعبه، تلك اللعبة التي أعطاها الطفل عن كرم للطفل الآخر.

وعلى الآباء والأمهات تقوية الجانب الدافئ والإنساني والكريم في طبيعة أطفالهم فى خلال الثلاث سنوات الأولى. إن هذه السنوات تنطوي على مشاعر مختلفة ومختلطة.

والطفل في هذه المرحلة يفعل الشيء ونقيضه بدون وعي، لا بل يتصرف دون حاجة إلى تفكير مسبق. إن الفطرة الأولى هي التي تغلبه.

وفي هذه السنوات الثلاث الأولى للآباء أن يقوموا بخطوات فعالة وواعية لترسيخ عادات التعاون بينهم وبين أطفالهم، بدلاً من أن يتركوا الطفل دون إرشاد، وهو بذلك يتحول إلى طاقة لا تعرف لها منفذًا إلا الإساءة إلى الغير. إن الطفل الذي لا يجد ما يفعله يمكن أن يدمر ما حوله لمجرد الفوضى ولمجرد التعبير عن طاقاته الهائلة الموجودة في جسده والتي تعبر عن نفسها بتلقائية. إن الأهل يجب أن يتيحوا الفرصة للطفل أن يلعب، وأن يحاولوا تعليمه كيفية مساعدتهم في بعض من أعمال البيت البسيطة كترتيب لعب الطفل أو جمع الأشياء المبعثرة من الصالة. وعندما يفعل الطفل ذلك لابد من إظهار الشكر والعرفان له، لأن الطفل يمكنه أن يحس بقيمة هذا الشكر ويتفاعل مع الأسرة في المرات القادمة.

ويمكن للأم أن تطلب من الطفل ذي العامين أن يحضر لها أي شيء يمكن أن يحمله من غرفة مجاورة. هنا سيقبل الطفل هذه المهمة على أنها رسالة سامية يؤديها. إنه يشعر أن طلب أمه لمساعدته هو جواز مرور يدخل به عالم الكبار.

وأحيانًا يعصي الطفل أمرًا أو طلبًا من أمه أو أبيه، وهنا لا يجب أن نجبر الطفل على فعل ما رفض أنه يفعله، ولكن على الأب أن يتصرف بجدية شديدة وأن يتجه هو إلى تنفيذ الفعل المطلوب ويعلن أنه كان سيفعل هذا الشيء بطريقة أفضل لو ساعده ابنه الصغير في أداء هذا العمل.

صحيح أن الأب لا يقول الصدق، ولكن الأب بمثل هذا القول يستثير همة الطفل، وهذه طريقة فعالة لتوليد العاطفة الإنسانية، عاطفة مد يد المساعدة للآخرين عندما يحتاجونها.

إنها الجدية الشديدة الممتزجة بالعاطفة.

ومن بعد العام الثالث من حياة الطفل تبدأ فترة تستمر حوالي ثلاث سنوات، وفيها يحس الطفل بمشاعر متوهجة نحو الأب إن كان الطفل فتاة، ونحو الأم إن كان الطفل صبيًا. إنها أول قصة حب في حياة الطفل، ويلعب فيها الأب أو الأم دور المنافس للطفل. إن الولد ينافس والده في حب الأم والبنت تنافس الأم في حب الأب. ويحاول الولد أن يتسلط على الأم وأن يمتلكها، وتحاول البنت أن تحيط الأب بكل حنانها حتى لا يحب أمها. وهنا يمكن للأب أن يعلِّم الفتاة الصغيرة كيف تعتني بنفسها، وهنا يمكن للأم أن تعلِّم الإبن كيف يساعدها في أعمال البيت.

ويمكن للأب أن يفخر بالابن الذي يساعد أمه في أعمال البيت، والأب بذلك يقلل من الجانب السلبي لمنافسة الابن لأبيه في حب الأم.

ويمكن للأم أن تفخر بالبنت التي تساعد والدها وتهتم بشؤونه، والأم بذلك تقلل من الجانب السلبي لمنافسة الابنة لأمها في حب الأب.

إنها تفاصيل صغيرة يمكننا نحن الكبار أن نهتم بها ولا تكلفنا جهدًا كبيرًا، ولكنها تعلم الطفل الصغير كيف يكون كريمًا ومتعاونًا منذ بداية رحلة العمر.

متى يقول الطفل أول الكلمات الجميلة؟

عندما ننظر إلى حديقة مليئة بالأزهار تمتلئ مشاعرنا بالراحة والانسجام مع هذا الكون، وعندما ننظر إلى مكان خرب مليء بالخفافيش والغربان تمتلئ مشاعرنا بالقلق والتوتر ونسرع بالهرب من المكان.

وفم الإنسان إما أن يجيئ بكلمات تزرع في قلب السامع لها حديقة مليئة بأزهار العاطفة، وإما أن ينطق بكلمات جافة كأنها المعاول، فتهدم الجمال في أعماق الإنسان لتجعله يرى الكلمة الخشنة على شفتي القائل وكأنها خرائب موحشة مليئة بالخفافيش والغربان.

وماذا عن فم الطفل الذي ينطق الكلمات، كل الكلمات؟

إن في أعماق الطفل جهاز تسجيل دقيقا تنطبع عليه الكلمات بمعانيها، فعندما يعرف الطفل أن الشيء المستدير اسمه كرة، فإنه قد يسمي رأس دميته كرة، وقد يركل حبة البطاطس المستديرة لأنها تشبه الكرة، وقد يقلب حوض الأسماك الدائري ويحاول أن يلعب به لمجرد أنه مستدير.

والتمييز بين المعاني والكلمات يتعلمه الطفل تدريجيًا، وخصوصًا في عصرنا هذا. ففي الزمن القديم كانت حصيلة الكلمات على فم الطفل في الخامسة من العمر لا تساوي حصيلة الكلمات التي على لسان الطفل الذي بلغ الثالثة في زماننا. والسبب هو اتساع

مساحة الكلام أمام الطفل. إن التليفزيون يهيئ له الاستماع إلى مختلف اللهجات والاستعمالات والتعابير. وكلنا نلاحظ في كل موسم رمضاني، في مصر مثلًا، أن الأطفال ينطقون الكلمات التي تأتي في مقدمة "الفوازير". ولقد عانى بيت فيه طفل صغير من كلمات "مدرسة المشاغبين" التي حفظها الأطفال. ولا أنسى أن ابني جاءني بشريط كاسيت، وهو في الخامسة من العمر، لينقله على مسجله الخاص. وكان يضم الحوار القاسي والغليظ الذي يتبادله سعيد صالح وعادل إمام ويونس شلبي مع المدرسة سهير البابلي والناظر حسن مصطفى. ولا أنسى أنني عاتبت المؤلف علي سالم، فقال لي: "لقد خرجوا بالنص عن الخط الذي رسمته لهم". وعدت إلى البيت أفكر في زراعة قيمة الاحترام بين الصغير الذي بلغ الخامسة وبين الكبار، لا لأنني أسعى إلى كبت حرية الولد ولكن أن هناك حاجة نفسية أساسية عند الطفل.. حاجة تسمى "حاجة الانضباط والرقابة" لأن الطفل دون رقابة يشعر بالضياع. وأتيت لابني بشريط كاسيت عليه أغاني فيروز، وعلى الفور انسجم الطفل مع مسرحية "صح النوم" لفيروز أكثر من انسجامه مع مسرحية "مدرسة المشاغبين"، وبدأ يرسم لوحات جميلة مازلت أحتفظ بها. وكان يرسمها وهو يسمع موسيقى الرحبانيين وغناء فيروز.

إن الطفل يلتقط الكلمات من والديه ومن التليفزيون ومن الناس المحيطين به على اختلافهم، وفي قلب الطفل رغبة عميقة في أن يكبر وأن يصبح مثل والديه ليكافح مثلهم ويكون أسرة على نمط أسرته الصغيرة. ولذلك نرى الطفل يعقد في بعض الأحيان صداقة سريعة مع بعض الغرباء لمجرد أن الأب يمدح أمامه هؤلاء الغرباء.

ونجد الطفل في بعض اللحظات يتقاسم ألعابه مع أبناء زملاء أمه في العمل أو أبناء زملاء أبيه في العمل، ويمكننا أن نلتقط نحن الكبار لحظات الصفاء في حياة الأطفال وأن نعلمهم الكلمات الجميلة التي يمكن أن ينطقوها في المناسبات المختلفة كأن نعلم الطفل أن يقول: "أرجوك افعل لي كذا"، أو "شكرا لأنك قدمت لي كوب الماء"، أو "أنا سعيد لأنك أحضرت لي هذه اللعبة".

إن لحظات الابتهاج العفوية تنتج مشاعر طيبة ويمكن أن نستغلها لتعليم الأطفال كيفية نطق كلمات الشكر أو الرجاء. وعندما يتعلم الطفل مثل هذه الكلمات فإنه يجد الثناء والتشجيع من حوله، وهكذا يتشرب الطفل كلمات التهذيب.

ويمكن للإبن منذ العام الرابع أن يسهم في إزالة الأتربة من على سطح الأثاث، وأن يكنس الأرض، وأن يجفف الأطباق، وأن يحضر ملابسه قبل دخوله الحمام. وقد لايتقن

الطفل القيام بهذه الأعمال، ويمكن للأم أن تساعده على إتمام مثل هذه الأعمال.

وإذا كان هناك محل بقالة لا يبعد عن المنزل إلا خطوات؛ فلا مانع من أن ترسل الأم الطفل ذا الخمسة أعوام ليشتري شيئًا من هذا المحل وأن يحاسب البائع، بشرط أن يكون الطفل تحت رقابة الأم خوفًا من السيارات المسرعة. ويمكن للابن في عمر السادسة أن يحمل حقيبة المشتريات فى أثناء ذهاب الأم أو الأب للتسوُّق. ويمكن للابن أن يفتح الباب، باب المنزل إذا ما دق الجرس وكان الأب أو الأم مشغولاً في عمل ما فسمحا له بذلك. ويمكن للأطفال أن يصنعوا بطاقات المعايدة ويقوموا بتلوينها.

إن إسناد بعضًا الأعمال للأطفال الصغار يجعل الصغار يتعلمون من الكبار ويجعل طاقاتهم الكبيرة تلتقط ألوان السلوك الذي ينتهجه الكبار. وأيضا يلتقط الأطفال الألفاظ المعبرة عن المعاني بشكل مهذب.

إن إسناد بعض من الأعمال الصغيرة إلى الأطفال يفجر في أعماق الأطفال الفخر بأنفسهم، ويجعلهم يكتسبون لغة الكبار في التعبير عن أنفسهم.

وكثيرًا ما سألت عددا من الأمهات اللاتي يطلبن من الصغار القيام بمثل هذه الأعمال، وكثيرًا ما تلقيت منهن إجابات مدهشة. وها هي إحدى الأمهات تقول لي إن أطفالها يقدمون لها مساعدات قيمة في أعمال البيت، وها هي أم أخرى تقول لي: "إن ابني الذي هو في الرابعة من عمره يساعدني في أعمال المنزل ويطلب أجرًا بسيطًا على ذلك، ويجمع هذا الأجر في حصالة ثم يخرج في يوم الأجازة ويشتري لنفسه لعبة ويعتني بهذه اللعبة تمامًا. إن اعتزازه باللعبة التي اشتراها من مصروف يده أكثر من اعتزازه بكل اللعب التي اشترتها له الأسرة".

وفي أحد المعسكرات التي أقيمت للأطفال اللقطاء الذين تربيهم ملاجئ السيدة آن فرويد يمكننا أن نجد التعاون الفعال بين الصغار الذين لم يبلغوا السادسة بعد. إن الطفل في مثل هذا المعسكر يمكنه أن يقدم ملعقته الخاصة به إلى طفل آخر، وذلك حتى يتمكن ذلك الطفل من تناول طعامه، بينما ينتظر الطفل صاحب الملعقة انتهاء زميله من الطعام ليغسل الملعقة ثم يأكل بها. إنه لون من الإيثار الفريد.

أما الآباء والأمهات الذين يفقدون الصبر ويقولون لأنفسهم ولمن حولهم: "ومن الذي عنده الصبر ليتفاهم مع طفل صغير ويجعله يتقبل مساعدة هذا الطفل في أعمال البيت"؟ فإننا نقول لهم:

ـ أنتم تفتقدون فرصة لا تعوض لتعليم طفلكم فن العمل بإتقان حتى يعبر عن نفسه

وفي مجتمعه بكلمات جميلة. إن الذوق يكتسبه الطفل من التدريب فكيف تنسون ذلك؟

وعن ضيق الصبر نقول لهؤلاء الآباء والأمهات:

ـ إن الصبر هو المادة الأساسية التي تغزل منها تربية الأبناء، وعلينا أن نتدرب علي الصبر، ذلك أن صراخك في وجه الطفل طالبًا منه الصمت وعدم الحركة إنما يعني أن الطفل سيتحرك رغمًا عنك ورغمًا عن أنفه أيضًا لأن طاقة الحياة تحب أن تعبر عن نفسها بالحركة. وطلبك لابنك بالصمت إنما يعني أن الابن سيتكلم مع أحد غيرك. وعندما يكبر هذا الابن فأنت ستحاول أن تتكلم معه ولكنه لن يجد في نفسه القدرة على التواصل الفكري معك لأنك حرمته من ذلك وهو طفل.

إن الذين يرغبون في شيخوخة سعيدة مع أبنائهم هم الذين يمنحون الأبناء الفرصة للعمل معهم فى أثناء الطفولة، وهم الذين يصبرون على أبنائهم ويحاولون إكساب الأطفال اللغة المناسبة للتعبير عن كل عمل.

والذين يرغبون في إنضاج أبنائهم بصورة بعيدة عن النصائح المباشرة هم الذين يستطيعون تعليم الأبناء من خلال سلسلة من الأعمال الصغيرة، ويتفاعلون معهم وينقلون لهم كل القيم السامية التي يحلمون بها.

ولنا أن نعرف أن الطفل الذي يساعد أمه في المنزل في بعض من أعمال البيت هو الطفل الذي يمكن أن يساعد مدرسته عندما يلتحق بالمدرسة لتشرح له أكثر ويفهم أكثر، وهو الطفل الذي يعرف كيف يختار الكلمات المناسبة لكل أمر.

أما الطفل المحروم من العمل في الأسرة فهو المحروم من الفرصة العملية للتدريب اللازم لبدء أي عمل، وهو الذي قد ينطق كلامًا قاسيًا لأنه لم ينضج بالتفاعل مع والديه.

فأي الأطفال تختاره ليكون ابنك؟

هل تختار الطفل المتعاون، المحب، القادر على التعبير بالكلمات الجميلة؟ أم تختار الطفل القاسي، الجاف؟ الخالي من الحنان، العاجز عن التعبير عن نفسه إلا بألفاظ غير لائقة؟

إنك أنت أيها الأب وأنت أيتها الأم عليكما الاختيار عمليًا أي الأطفال هو الطفل المناسب لكما والمعبر عنكما.

هل تدفع أجرا لابنك عندما يساعدك في أعمال البيت ؟

يدق باب البيت . هل أنت ترى قريبًا عزيزًا عليك يقدم لك دعوة لحضور حفل زفاف. تتمنى أن تشاركه الفرح. لكن قلبك يسقط بين قدميك لمجرد قراءة عبارة في بطاقة الدعوة تقول "يرجى عدم اصطحاب الأطفال". تفكر في الاعتذار لقريبك. لكنك تريد أن تفرح، والأفراح فرصة للفسحة المجانية ولسماع الغناء ومشاهدة الرقص، وليلة من ليالي التهريج والفرح. وتقول لنفسك: سأطلب من ابني الكبير الذي بلغ السابعة عشرة أن يجلس مع إخوته الصغار. ها هو ابنك الذي بلغ السابعة عشرة يعود من الخارج بعد قضاء وقت "مراهق" مع شلة الصحاب. والوقت المراهق هو وقت اللهو البريء وغير البريء. فمعايير البراءة مختلف من زمان إلى آخر. على وجه الابن بعض ملامح الحزن. تسأله عن السبب فيصمت وصمته يداري به مشكلة ما. لقد قدم له صديقه سيجارة فقال ابنك لصديقه: "التدخين ضار جدًا بالصحة وفي كل سيجارة بضع من غاز أول أوكسيد الكربون الذي يسمم الإنسان دون أن يدري". لكن رد الصديق كان جارحًا عندما قال: "إنك لست رجلاً لأنك ترفض التجربة". وخاف ابنك على صحته وخاف في نفس الوقت من ذلك التحدي المفروض عليه من صديقه. إن ابنك المراهق يلعب دور الإنسان المتزن نتيجة فهمه العميق لأخطار التدخين على الصحة ونتيجة معرفته الواعية بأن كل الانحرافات في أوساط الشباب إنما تبدأ بتحد ما. يعرض الصديق لصديقه المادة المخدرة ويقول له: "إن كنت

رجلاً افعل ذلك". وابنك يعلم جيداً أن هذه تحديات فارغة المعنى، تحديات من الممكن أن تسرق من الشاب رجولته ومستقبله.

وينفجر ابنك ذو السابعة عشرة في وجه صديقه قائلاً: "إنك لا تعرف الرجولة إن كنت تربط الرجولة بالسيجارة وبغيرها من الأشياء".

ويعود ابنك إلى المنزل غارقًا في دوامة الحزن لانفجار الغضب بينه وبين صديقه، ويجد وجهك في انتظاره.

إنك تنتظره حتى ترجوه أن يجلس مع بقية إخوته في أحد أيام آخر الأسبوع لأنك تريد أن تذهب إلى حفلة زفاف. إنك لن تجرؤ أن تقول لابنك إنك تحب الرقص الشرقي ومشاهدة الراقصة. وإنك تريده أن يجلس مع إخوته الصغار في المنزل عندما تذهب أنت وزوجتك إلى حفل الزفاف الساهر.

وأمامك أحد أمرين: إما أن تتحدث إلى ابنك بلهجة الرجاء أن يجلس في المنزل، وإما أن تتحدث إليه بلهجة الأمر وتقول له بصوت ملؤه السيطرة: "ستجلس في المنزل لأذهب أنا وأمك إلى حفل زفاف فلان وستهتم بإخوتك الصغار".

وفي كلتا الحالتين سيستقبل ابنك هذا الأمر على ضوء التجارب السابقة في اعتمادك عليه.

فإن كنت قد دربته وهو صغير على الإحساس بالمسئولية نحو نفسه ونحو أسرته فلن يجد الإبن أي مبرر للرفض، بل سيعتبر طلبك هذا عملاً يفرح بالإقبال عليه.

وإن لم تكن قد دربته وهو صغير على الاهتمام بشئونه وشئون أسرته وكنت دائم القول: "إنه مجرد طفل صغير وسأقوم نيابة عنه بكل شيء". فمن المؤكد أنك ستقابل التمرد والاندفاع وستسمع منه كلمات من مثل: "لا لن أجلس مع إخوتي الصغار لأني لست مربية أطفال".

إننا نحن الكبار ننسى دائمًا أنه علينا عند بلوغ الطفل العام الرابع من العمر أن ندربه على الإهتمام بنفسه وبالناس المحيطين به وخصوصًا الذين يحبهم.

إنني لا أنسى أنني كنت أساعد زوجتي في تغيير ملابس طفلتنا الثانية وكان ابننا الكبير يبلغ في ذك الوقت عامه الرابع، وكنت أقوم بغسل الملابس بيدي أمامه وأطلب منه أن يعصرها لنقوم بنشرها في الشمس معًا. وعندما كانت أمه تقول لي: "ما الذي يجعلك ترهق طفلاً صغيراً في مثل هذه الأعمال؟" كنت أجيب زوجتي بمنتهى الهدوء: " إن هذا هو العمر الذي يجب أن يعاوننا فيه الابن". وأذكر أنه عندما دخل المدرسة كنا نجلس يومياً في

المساء لنقوم بتلميع الأحذية التي خرجنا فيها. صحيح أن يديه كانتا تغرقان في ألوان دهانات الأحذية، ولكن هذه المسألة صارت عادة يومية له. إنه يمسح حذاءه ويلمعه يوميًا قبل أن ينام. وعندما بلغ عامه السابع كانت جائزة عيد ميلاده هي أن نسمح له بالاستحمام كل مساء بمفرده ودون معاونة من أحد. وعندما بلغ عامه الثامن كان عليه أن يخرج في الصباح لتنظيف سيارة الأسرة ويحضر الجرائد والخبز الساخن للإفطار، وكانت زوجتي تقول لي: "إنك تقسو على الطفل. إنه ليس خادمًا عندنا. إنه ابننا". وكنت أقول لزوجتي: "هذا عصر الاعتماد على النفس وتبادل الاعتماد داخل الأسرة يعزز إحساس الطفل بأسرته ويعزز ثقته بنفسه وإحساسه أنه مسئول عن بعض أعمال الأسرة".

وعندما طلب مني ابني أن نربي كلبًا في المنزل وافقته بشرط أن نطعمه معًا وأن نغسل معًا أرضية المكان الذي يقضي فيه الكلب حاجته. ووافقني ابني على ذلك. وقمنا بذلك العمل لمدة شهرين إلى أن ظهر على جلد ابني بقعة محمرة قال لي الطبيب إنها ناشئة عن تربية الكلاب. وذهبنا معًا إلى جمعية الرفق بالحيوان لنسلمها الكلب الصغير ودموع الولد الصغير تفيض. ولكن علاج البقعة الجلدية استمر ثلاثة شهور مما جعله ينصح كل أصدقائه بعدم تربية الكلاب في المنزل.

وعندما نقوم من النوم في الصباح كنت أشترط على الجميع أن نترك منزلنا نظيفًا قبل أن نخرج إلى المدرسة أو العمل، وكان هذا يقتضي أن نستيقظ من النوم قبل مواعيد الدراسة، والعمل لمدة ساعتين وذلك لترتيب البيت وتناول الإفطار. وليقوم كل واحد منا بوضع جدول أعماله طول النهار. وعندما كان الطفل يقول: "إنني لن أسهر لمشاهدة التليفزيون لأني أنام مبكرًا" كنت أسأله أي البرامج يفضلها. لنقوم بتسجيلها بالفيديو ليراها في يوم إجازته.

إن سن السادسة إلى الثانية عشرة مناسبة جدًا لتدريب الأطفال على كل الأعمال اللازمة لمساعدة الأسرة، مثل ترتيب المنزل، وتنظيم وضع الألعاب في المكان المخصص لذلك، وتنظيف ملابسهم، والقيام بوضع الملابس النظيفة في الأدراج والدواليب، والمساعدة في تنظيف كل البيت.

إن الابن يزول عنه أي حرج إذا ما تعود أن يساعد الأسرة في كل أعمال البيت، في حين أنه يغرق في الارتباك والحرج إن لم يتعود منذ طفولته على هذه المشاركة. إنه يغرق في هذا الارتباك إذا طلب منه أحد أن يساعد في أعمال الأسرة.

ويجب ألا يشعر الآباء والأمهات بأي حرج من طلب المساعدة من أبنائهم وبناتهم إذا

ما بلغوا السابعة أو فوق ذلك وما دام الطلب مناسبًا لأعمارهم.

وقد يسأل بعض الآباء والأمهات سؤالاً مهمًا هو: "هل نعطي أبناءنا أجرًا على قيامهم ببعض الأعمال التي يساعدوننا فيها"؟

وأقول: لا.. بل إن الابن نفسه إذا سألك أجرًا على عمل ما، فقل له إن هذا العمل يساعدنا جميعًا. ولكن إذا كان العمل يستهلك بضع ساعات أو يومًا كاملًا، فمن الممكن أن تهدي الابن بعضًا من النقود التي تساعده في شراء شيء ما بالإضافة إلى مصروف جيبه.

إن الابن الذي يتلقى كلمة الشكر والاعتزاز من أبيه لأنه ساعد الأب أو الأم في عمل مفيد هو الابن الذي يفرح بمساعدة كل الكبار. وهو الابن الذي يضع في اعتباره جيدًا أن مساعدة النفس أو الأسرة أو المجتمع عمل صالح أخلاقي مطلوب.

إن المجتمعات المعاصرة كلها تشكو من أنانية الذين يعيشون فيها وذلك لأن الأجيال التي تعيش في هذه المجتمعات نشأت على تربية تضع اللذة والمتعة الخاصة فوق كل شيء، ولم يتعرف الناس على أخلاق الأجيال السابقة التي كان من شيمتها مساعدة الآخرين.

ولكن علينا أن نعلم الأبناء أيضًا أن مساعدة الآخرين ليست توريط النفس في مشاكل لا مبرر لها، وأن نعودهم على مساعدة المعارف والأصدقاء والجيران دون غيرهم، ذلك أن هناك عصابات في المدن الكبرى تستغل براءة الأطفال في أمور نعرفها جميعًا وهي تقضي على مستقبل الأطفال.

متي نبدأ في تعليم الطفل

كيف يكون مسئولا عن نفسه وأسرته أيضا ؟

لا ريب أن دخول المدرسة لأول مرة أمر شاق بالنسبة لابن السادسة.

ولكن ذاك الطفل دخل المدرسة بجرأة، ونظر إلى بواب المدرسة العجوز بتقدير، ودق باب غرفة المديرة بمنتهى الثقة بالنفس، وقدم لها وردة حمراء كانت في يده، وقال لها الكلمات التي علمها له أبوه "إن هذه الوردة تعيش للحظات، ولكن عطر إدارتك لهذه المدرسة يستمر لأجيال". ولما كانت مديرة المدرسة لم تتزوج طوال حياتها وهي تشرف الآن على الستين، فقد قفزت من كرسي إدارة المدرسة لتحتضن الصغير الذي يقدم العرفان بالجميل قبل أن يتلقى فن إدارة هذه المرأة للمدرسة. وقالت للطفل الصغير: "أنا أعلم أن والدك هو الذي علمك هذه الكلمات، ولكن مجرد حفظك لها وأسلوب نطقك إياها دخلا قلبي مباشرة".

وكان الدخول إلى هذه المدرسة مثل دخول الجنة: لابد فيه من عمل صالح، ولا بد من شفاعة أو وساطة. ولكن والد الطفل لم يهتم بالبحث عن وساطة بل قرر أن يعلم ابنه كيف يكون جديراً بالحوار مع هذه المرأة الصعبة.

سألت المديرة الطفل الصغير: "هل تستطيع أن تربط رباط حذائك؟".

ضحك الصغير جداً وقال لها: "لست أحب الأحذية ذات الأربطة، لا لشيء إلا لأنني أجلس أمام التليفزيون في المساء وأرتب كل أمور الصباح قبل أن أنام. أضع الحذاء والجوارب والملابس المدرسية بجانب السرير، وأقوم متأخراً في الصباح، ولذلك أحب أن

أرتدي حذاءً لا يضايقني. أحب الحذاء الذي لا يأخذ مني وقتًا في ارتدائه.

وضحكت المديرة التي لم تكن تضحك أبدًا وقالت: "أحب فيك صراحتك هذه، من أين تعلمت هذه الصراحة؟".

أجاب الطفل الذي لم يجاوز السادسة إلا قليلاً بقوله: "اكتسبت هذه الصراحة من قسوة الظروف. أنت تعلمين ياسيدتي أن الطفل لا يجد حضانة مناسبة. وتلجأ الأمهات والآباء إلى الخادمات والمربيات، وكانت عندنا مربية تنتظر خروج أمي وأبي إلى العمل لتضربني. ويومًا عاد أبي فجأة فتجمدت من الخوف وأنا أبكي ففهم أبي القصة بسرعة، ثم نظر إلى المربية وأمرها بإحضار ملابسها وأعطاها أجرها وطردها من المنزل. وكانت تلك هي أول مرة أحس فيها بأهمية مساعدة الكبار. أحسست أن أبي يطلب مساعدتي بعد طرد هذه المربية، وأحسست أن أمي تطلب مساعدتي. وذهبنا في اليوم التالي إلى حضانة في حينا فيها حديقة واسعة، ولكن كل الأطفال الذين في الحضانة كانت لهم مشاكل عائلية. يقال إنهم أبناء المطلقين والمطلقات. لقد هجموا على طعامي وكأنهم لم يأكلوا من قبل. دافعت عن طعامي بقوة. ولم أكن أعرف أن أبي قد سار في الشارع وهو يبكي لأنه تركني في الحضانة، وكذلك أمي. ولم يستمر هذا الوضع طويلاً فقد انقلب القلق في صدري إلى حساسية قال الطبيب عنها إنها حساسية عدم الانسجام".

وعرفت المديرة أنها أمام طفل غير عادي. قالت المديرة لوالد الطفل يوماً: "إن ابنك يحيا فوق عمره".

قال الأب: "لا أستطيع إلا أن أكون صريحًا مع الطفل إلى أقصى درجة. إنه صديقي الوحيد الذي يفهمني".

وهنا تدخلت الأم لتقول للمديرة: "أنا أتعجب أحيانًا من الكلمات الكبيرة التي يحكيها الوالد لابنه. إنني أقول له إنه مازال طفلًا، فيجيبني بقوله: "الطفولة هي الإحساس الصادق، وعندما تحترمين الطفل وتكونين صادقة معه، فسوف يبادلك ذلك على الفور".

وكانت المديرة تنظر إلى الطفل في اندهاش. وسمعت المديرة ضجيج طلبة الدراسة الثانوية التي تضمها مدرستها، فالمدرسة تضم مراحل الحضانة والابتدائي والإعدادي والثانوي. وقامت المديرة لتنادي طالبًا كبيرًا له شعر أطول من اللازم. وأمسكت بمقص وقصت له أكبر كمية ممكنة من شعره وذلك حتى يتجه فور خروجه من المدرسة إلى الحلاق ليقص له شعره.

وهنا سألها الطفل الصغير: "لماذا تفعلين معه ذلك؟".

قالت المديرة : "إنه لم يسمع كلامي. لقد طلبت منه أن يقص شعره خمس مرات من قبل ولكنه لم يفعل".

قال الطفل الصغير للمديرة: "أليس إنسانًا حرًا يربي شعره كما يريد"؟.

قالت المديرة: "إنه ليس حرًا بل يجب أن يلتزم بقوانين المدرسة".

قال الطفل للمديرة: "كنت أفضل أن تقنعيه بدلاً من أن تقصي شعره بالقوة. صدقيني إنني أخاف من الالتحاق بمدرسة تحت قيادتك".

قالت المديرة بهدوء: "أنت حر في أن تخاف ولكنك لست حرًا في أن تتصرف كما تريد في المجتمع. ثم إن قرار التحاقك بالمدرسة لم تأخذه أنت بل آخذه أنا".

فقال الطفل : "يا سيدتي إنك تملكين نصف الموافقة. لأنني أنا الذي وافقت أولاً على أن أحضر إلى هذه المدرسة وأقدم مع والدي طلبًا للالتحاق بها. ومعنى هذا أنني أنا الذي وافقت أولاً ثم تأتي موافقتك من بعد ذلك".

قالت: "على أي حال، أنا لن أقبلك بالحضانة أو المدرسة الابتدائية ما لم تقم أمامي بشراء حذاء له رباط وأن تتعلم ربط رباط الحذاء".

وقال الطفل: "هذا أمر متروك للمناقشة بيني وبين والدي ووالدتي".

وخرجنا من باب غرفة المديرة التي همست في أذني: "إنني معجبة به لأنه كثير النقاش وقوي الحجة وسريع البديهة، ولكني أتردد في قبوله في المدرسة لأنه كثير التمرد".

كان الابن الذي يتكلم بكل هذا الكلام هو ابني "شريف". وكانت المديرة هي المرأة التي تشهد لها القاهرة بأنها أصعب مديرة مدرسة في القاهرة كلها. وعلى الفور تذكرت مديرة مدرستي القديمة السيدة نبوية موسى.. هذه المرأة التي اقتحمت دنيا التربية والتعليم وأعلنت بحزم بالغ "أن تحرير الأمم يبدأ من تعليم الأبناء تعليمًا صحيحًا". وافتتحت مدرسة تعلم الأطفال والبنات من عمر الرابعة وحتى الثانوية العامة. وكانت تبدو كقائد جيش قوقازي، ملابسها سوداء وليس لها من ملامح الأنوثة إلا اسمها. وكانت جافة كأنها عود خيزران، كما كانت تتمتع برهبة تجعل الإنسان يتخيل أنها قاسية.

وألحقني والدي بتلك المدرسة. وفي أحد الأيام أوقفتني السيدة نبوية موسى وسألتني: "أين رباط عنقك؟" كنت طفلاً في السابعة، وكنت أتجمد من الخوف من نظرات عينيها تحت النظارة السميكة. ولا أدري كيف أجبتها بقولي: "إنني غير مقتنع بارتداء رباط العنق فهو لا يستر شيئا من الجسم كما أنه يخنق رقبتي".

قالت السيدة الكبيرة: "عليك أن تتبع النظام ثم تفهم من بعد ذلك".

فقلت لها: "إنني إنسان يا أستاذة ولست قرداً يطلب منه أن يقلد الآخرين".

وفي ذلك اليوم دخلت السيدة نبوية موسى إلى الفصل الدراسي لتشرح لنا علاقة رباط العنق بالإنسان، حيث كان الإنسان في القرن الثامن عشر يضع منديلاً حول رقبته حتى لا يتساقط الطعام على ملابسه، وتم اختصار هذه العادة وذلك المنديل ليكون علامة مميزة للجماعات وأيضًا لأناقة الرجال.

وهكذا، وبعد أربعين عامًا، شاهدت ابني يطلب شرحًا من مديرة المدرسة إجابة عن السبب الذي من أجله يتحتم على الطفل أن يرتدي حذاء له رباط وأن يقص شعره دون اقتناع. وفي تاريخي القديم شاهدت نفسي وأنا أتجمد من الخوف وأسال نبوية موسى عن جدوى رباط العنق. وما أن خرجت مع ابني من لقاء المديرة حتى سألني: "أتعتقد أن الدراسة في هذه المدرسة ممتعة؟".

قلت: "ليس هناك شيء ممتع على طول الخط وليس هناك شيء متعب على طول الخط، فأنت تعلم أن أية لعبة من لعبك جميلة وممتعة بعض الوقت، لكنها مملة ومتعبة بعض الوقت".

وقال ابني بحزم: "سأدخل مدرسة أخرى".

وفي المدرسة الأخرى صادف الابن متاعب لاحدود لها. قابل مدرسات عاجزات عن التدريس. وقابل زملاء أكثر ثراء منه وزملاء أكثر فقراً. خرج إلى المجتمع الصغير يتصارع معه. وكان يعود إلى المنزل ليجد أن هناك نصف ساعة يوميًا يشارك فيها كل فرد من أفراد الأسرة في عمل البيت: يجمع هو مثلاً الأطباق والأكواب والشوك والسكاكين، والأم تقف في المطبخ، والأب يرتب الحجرات، والأخت تعتني بالنباتات المنزلية. وفي المساء هناك نصف ساعة أخرى لإعداد مائدة العشاء، بالإضافة إلى تعليم الأبناء كي ملابسهم بأنفسهم. ولم أكن أهتم لفكرة أن ابني قد يحرق أصابعه من المكواة الكهربائية، ولم أكن أخاف على تشويه القميص الذي يكويه، ولكني كنت أثق أنه لا يجب علينا أن نقوم أنا وأمه بكل العمل في البيت بمفردنا، لأنني كنت أقول لنفسي: "إن لم يتحمل الابن جزءا من مسئوليات البيت فماذا يفعل في الوقت الذي تكون فيه الأم مشغولة عنه وكذلك الأب؟ لابد أن يتجه إلى العبث واللهو وتدمير أي شيء. لذلك فمن الأفضل أن يشارك في عمل الأسرة ليكون إنسانًا جديراً بالإحساس بأن له قيمة داخل هذه الأسرة".

إنني لم أقل لنفسي أبدًا: "إن ابني مجرد طفل صغير لذلك سأقوم نيابة عنه بكل الأعمال في البيت وخارج البيت".. ولكني كنت وما زلت أقول لنفسي: "إن ابني إنسان

ويمكنه أن يقوم ببعض الأعمال ويشعر أنه أنجز شيئًا".

وعلى هذا النمط من السلوك، لم يخجل ابني وهو الآن في السادسة عشرة من أن يمسك بالمكنسة الكهربائية لينظف كل البيت، وأن يمسك بدلو الماء لنقوم معًا بتنظيف الصالة ذات الأرضية الرخامية، أو أن نقف معًا لنقوم بتلميع زجاج المنزل.

بدأ كل ذلك من منطق بسيط هو أن ابني إنسان ويمكنه "أن يقوم ببعض الأعمال، ويشعر أنه أنجز شيئاً".

فساد الأطفال يبدأ من انفصال

أحاسيس الكبار عن أفعالهم

في العام السادس من عمر الطفل يدق باب قلبه السؤال التالي: "هل الكبار يحترمونني حقا؟"، والاحترام ببساطة هو أن تصبح مسافة الهواء التي تفصل بين جسد الطفل وجسد الوالدين ممتلئة بالدفء. والدفء ليس حالة احتضان دائم للطفل، ولكنه حالة اعتزاز نفسي بأن هذا الطفل جدير بالمستقبل وأن أخطاءه، قابلة للإصلاح. وهو ككائن صغير سيستطيع أن يصحح أي أمر بهدوء. ولست أعني بعدم الاحترام بين الكبار وبين الطفل توجيه كلمات اللوم أوالعتاب عند الخطأ، بقدر ما أعني به الإحساس العميق بالندم لأنك أنجبت هذا الطفل، أو أن تنظر إلى الطفل وكأنه قيد حول عنقك.

إنني لا أنسى أبدًا ذاك الشاب الذي كان يعيش قصة حب، وحدث ما حدث بينه وبين حبيبته. وفي لحظة من عناد انتحاري تم خنق قصة الحب بأن قبلت الحبيبة الزواج من رجل آخر. وتنفست أسرة الحبيبة بارتياح، فأخيرًا عادت الابنة إلى الصواب واختارت الرجل المناسب لاسم العائلة ومركزها الاجتماعي. ومر الزمن بسرعة لتلد الحبيبة، من زوجها الذي لا تحبه، ابنة يشهد وجودها أن لحظات العناق بين الأم وزوجها الطبيب المختص في أمراض النساء كانت أشبه بعملية تنظيف الأسنان التي تفضي إلى التهاب اللثة! وظلت هذه الأم الصغيرة تعاني من اضطرابات في الدورة الشهرية ومن آلام في المبيضين مجهولة السبب طبيًا. وتستمر رحلة الألم سنوات، وتكبر الابنة الصغيرة فتبلغ سن التاسعة وهي ما زالت متخلفة دراسيًا، وكثيرة الشرود الذهني، وكثيرة التدمير لكل

شيء حولها: تنظر إلى أمها بعناد غريب، ولا تنفذ أمرًا واحدًا أو رجاءً واحدًا، كما تستيقظ في الليل صارخة من فرط الكوابيس ترتجف بشدة وعنف ظاهرين. وفي الصباح تجلس الفتاة الصغيرة إلى مائدة الإفطار الباردة وتسمع الحوار الجاف بين والدها ووالدتها، وترى في عيني والدها حالة ندم شديد لأنه تزوج هذه المرأة. إنه يعلم أن زوجته كانت تحب رجلاً آخر. وكثيرًا ما قامت بين الرجل وزوجته معارك بالتشابك بالأيدي، فتجري الابنة ذات التسعة أعوام لتفصل بينهما، وتعود إليها الكوابيس مع الليل بالإضافة إلى التبول اللاإرادى. وتلجأ الأسرة كلها للعلاج النفسي. وفي عيادة الطبيب النفسي تصاب هذه الأسرة، الناشئة عن زواج المرأة بغير من تحب، بمأساة من لون آخر.

ها هو حبيب المرأة الذي تركته عنادًا وتزوجت غيره. ها هو ومعه زوجته الهادئة التي لا تعرف سببًا لمرض ابنها المصاب، وهو في الثامنة من عمره، بحساسية بالغة في الصدر.

ها هي الزوجة الهادئة تتذكر كلمات طبيب الأمراض الصدرية عندما قال لها: "إن ابنك لا يعاني من حساسية الصدر إلا بسبب نفسي يعاني منه أحد الوالدين".

إن الزوجة الهادئة تعرف تاريخ زوجها تمامًا. لقد تزوجها بعد عام واحد من زواج حبيبته برجل آخر. إنه لا يسيء إلي زوجته أبدًا. ولكنها تتذكر تمامًا حالة القلق النفسي التي انتابت الزوج في أول أيام الزواج. كان يسأل كل ثلاثة أيام "هل حدث الحمل أم لا ؟" كأن حدوث الحمل هو التأكيد الوجيه لرجولته. وعندما حدث الحمل بدأ الزوج يفكر في الإجهاض. واتخذت الزوجة موقفًا أصرت فيه بهدوء على عدم الإجهاض. وعندما ولد الطفل كان الأب كثير الاحتفال به، ولكن دون مزح، فكأنه احتفال بشراء الأشياء مع غياب نظرة الفرح من العين. وتمضي الأيام والطفل يكبر بصعوبة، وأخير بدأت حساسية الصدر عند الطفل، وعرض الأب والأم طفلهما على كل الأطباء، وأخذ الطفل كل الأدوية وعاش في جو صعب. وأخيرًا قال طبيب الأمراض الصدرية إن هناك خللاً عاطفيًا عند أحد الوالدين ولا بد من استشارة طبيب نفسي، وإن أفضل علاج هو العلاج الجماعي للأسرة.

وجها لوجه التقي العاشق الذي صار أبًا لطفل مريض بالحساسية في صدره مع العاشقة التي تمردت في لحظة عناد فاندفعت إلى زواج أنجبت منه ابنة تعاني من التخلف الدراسي.

والتقى في نفس الوقت الزوج الذي عرف أن زوجته لا تحبه، بحبيب الزوجة الأول، والتقت في نفس اللحظة الزوجة بحبيبة زوجها الأولى. إذن لم تكن رحلة العلاج للطفلة المتخلفة دراسيًا إلا مجرد سؤال للأم: "هل تريدين الاستمرار في الزواج من زوجك أم تريدين الطلاق؟".

وإياكم أن يظن أحد منكم أن الإجابة على هذا السؤال مسألة سهلة، فالقضية هي مسألة إعادة هذه المرأة النظر في عواطفها من جديد.

إنها تستعيد مرة أخرى أيام الخيال مع الحبيب، وتتعرف عملياً على أخطائه. وترى بعين العاطفة أن حبها الأول الذي تندم عليه وتبتعد لأجله عن زوجها هو مجرد وهم. إنه صورة صنعها الخيال لم تصمد أمام الواقع. وعليها أن تستعيد مرة أخرى القدرة على رؤية زوجها من جديد، وأن تقيس بميزان حساس كيفية تحمله لأخطائها وكيفية مساعدته لها في مواجهة مشكلات الابنة المتخلفة دراسيًا. وبعد عدد لا بأس به من الجلسات العلاجية، بدأت هذه المرأة تعيد النظر في علاقتها بابنتها وعلاقتها بزوجها. وكما يقول الطبيب المعالج: "تظن المرأة أن لها فقط مبيضين ينتجان بالتناوب البويضات التي تلتقي في الرحم الخلايا الذكرية فيحدث الحمل، ولكن الحقيقة هي أن هناك أيضًا في خلايا المخ إنتاجًا متميزًا من إعادة علاج مشاكل الحياة، فإذا ما أعادت المرأة النظرإلى زوجها وأقامت معه علاقة حميمة فإن الابنة يمكنها أن تلتقط الأثر العاطفي المطلوب. والأثر العاطفي المطلوب هو في أن تشعر الابنة المتخلفة دراسيًا أن أمها تعيش مع أبيها لأنها تحبه، وليس أنها صارت أمًا. إن إحساس الابنة بأن أمها لا تحب أباها ينعكس على كل سلوكها. إن الحالة الشاذة التي تكون عليها الأم حين تعيش مع رجل لا تحبه تنتقل إلى أعماق الابنة فتنشأ سلسلة لا متناهية من العقبات. والابن أو الابنة يمكنهما أن يعيشا مع أب مطلق أو امرأة مطلقة بشكل أفضل بكثير من أن يعيشا حياة يختفي فيهما الحب بين الزوجين. وإذا ما شعرت الابنة أن الأم تحب الأب وتحيا معه لأنها تستمتع بهذه الحياة، فإن الابنة يمكنها أن تنطلق إلى آفاق الحياة دون تخلف دراسي.

وهذا ما حدث بعد علاج الأم من آثار العناد الذي قادها إلى زواج. لقد أعادت اختيار زوجها كحبيب لا كبديل لرجل آخر. لقد اكتشفت أن في هذا الرجل مميزات هي المميزات التي تسعدها. واكتشفت أن علاقتها بالحبيب القديم مجرد أوهام، واكتشفت أن "هروبها النفسي" من حبها لابنتها هو لون من الإحساس بالذنب العميق لأنها تركت الحبيب الأول، فالحبيب الأول يمثل بالنسبة إليها طفلاً مفقوداً.

وعندما علمت أن حياتها مع زوجها هي الحياة التي تحب أن تعيشها امتلأت المساحة – مساحة الهواء – بينها وبين ابنتها بالحنان الدافق. وبدأت تتعلم مع ابنتها دروس الموسيقى، وتفوقت الابنة في العزف الموسيقي وانتقل هذا التفوق إلى بقية المواد الدراسية.

أما الطفل المريض بحساسية في الصدر فقد كان علاجه متعلقًا بأبيه. إن المريض

الحقيقي هو الأب. فالأب بمشاعره المتناقضة تجاه زوجته وتجاه ابنه سبب لابنه هذا الاضطراب النفسي. وأعلن الاضطراب النفسي عن نفسه في شكل حساسية مبالغ فيها في صدر الطفل الصغير البالغ من العمر ثماني سنوات. إن أمراضه كلها التي عانى منها في طفولته لها سبب أساسي وهو اضطراب العلاقة بين الأب وبين نفسه. نعم.. فكل انفعالات الأب من حزنه على الحب الذي ضاع، ومن قلقه من حياته الجديدة ومسئولياته فيها، كل ذلك كان انتقل إلى نفسية الطفل الصغير حتى صارت حساسة تبدت في شكل الربو الذي يؤدي إلى نوبات اختناق. وكان على الأب أن يسأل نفسه هل يستمر في الزواج لأنه يحب الزوجة التي تحيا معه أم لا. وكان عليه أن يقدم استقالته من الخيال العاطفي القديم. وقد يعجب الإنسان عندما يعلم أن حساسية الصدر قد اختفت تمامًا عن هذا الابن كما اختفى التخلف الدراسي عند الفتاة التي تكبره بعام. والسبب هو أن أحاسيس الكبار لم تعد مختلفة مع سلوكهم، بل أصبحت هذه الأحاسيس معبرة عن هذا السلوك. ولذلك فعلى الكبار أن يعرفوا أن فساد بعض الأطفال إنما يبدأ من انفصال أحاسيس الكبار عن سلوكهم.

وعلى الكبار أن يعرفوا أن اتساق الإحساس مع السلوك يؤدي إلى مد هذا العالم بأطفال يشعرون أن المجتمع يحترمهم. لذلك يرحب بهم الآباء والأمهات أولًا، ثم يبذل الأبناء ما عليهم من جهد ليكونوا أعضاءً جددًا في رحلة بناء مجتمع متآلف.

حتى لا تضرب رأسك

في حائط الإحساس بالوحدة

ليس هناك مصمم سلوك بشري يشبه عمله مصمِّم الأزياء.

فأنت مع ملابسك تتجه إلى مصمم أزياء تختار منه، وتسمع له، وتطلب إليه تنفيذ ما تختاره لنفسك من ملابس، وتدفع النقود أجرًا لذلك، وترتدي ملابسك الجديدة، وتتلقى كلمات الإعجاب من الذين حولك بما ترتديه من ملابس رفيعة الذوق.

ولكن ماذا عن السلوك البشري؟ هل هناك مصمم سلوك بشري؟

وهل هناك "قطع غيار" لسلوك لا تراه حسنًا فتستبدله بقطع غيار لسلوك تراه مناسباً؟.

ونحن عندما ننظر إلى أطفالنا نتمنى أن يكون هناك مصمم سلوك بشري نسأله أن يقوم بتفصيل ألوان من السلوك الراقي لهم. وبعضنا قد يذهب إلى طبيب نفسي، وقد يكون هذا الطبيب من هواة الكيمياء فيعطي الطفل أقراصًا تعبث بجهازه العصبي مثلًا، ويستمر الخطأ ليولد خطأ آخر.

وبعضنا الآخر قد يقول لنفسه إن التسامح الزائد عن الحد ينتج أطفالاً أشقياء، تفتقر حياتهم إلى التوازن المطلوب لمواجهة الحياة بشكل ناجح. والقسوة المبالغ فيها تنتج أطفالاً ممتلئين بالخوف من هذا العالم. ولذلك لابد من التوازن بين التسامح وبين الحزم، ولابد من الإيمان بالحقيقة البديهية وهي أننا نربي أطفالنا لزمان غير زماننا، وبالتالي لا يمكن أن نتنبأ بالنتيجة النهائية التي يصل إليها الابن من خلال أسلوب التربية الذي يتبعه الأب

والأم، فكثيراً ما نسمع عن عبقري في مجال من مجالات الحياة كانت طفولته قاسية جداً. ونسمع عن مجرم ضليع في الإجرام، كانت طفولته تتميز بالاتزان التربوي المنشود. والسبب في ذلك هو أن العبقري كان له مخزون من الظروف المتتابعة التي أعطته فرصة للإبداع. والسبب في ذلك أيضًا أن المجرم شاءت له الظروف الاجتماعية أن تحطم رصيده من الاتزان التربوي المنشود. ولذلك يؤمن كاتب هذه السطور بأهمية إيمان الأب والأم بإله واحد قادر، يمكن أن يمنح أبناءهما ظروفًا اجتماعية لا تسرق من الأبناء الاتزان التربوي وأن تتيح لهم فرصًا للإبداع.هذا على مستوى الإيمان، فماذا عن مستوى الواقع المادي اليوم؟

نحن نجد على سبيل المثال، أن الحضارة الغربية المعاصرة خرجت علينا من بعد الحرب العالمية الأخيرة بضرورة المساواة بين الآباء والأبناء، والسبب في ذلك هو أن الابن – في بعض الأحيان – قد رأى أمه في أحضان رجل آخر فى أثناء غياب الأب، وأن الأب قد حكى لرفاقه بما وصل إلى سمع الابن _في بعض الأحيان _أنه مارس الحب في كل مدينة دخلها محاربًا.

إذن فقد سقطت – غالباً – أمام الابن منذ الطفولة أقنعة الاحترام التي تولد معه تجاه أمه وأبيه. وعندما عاد الآباء من الحرب قامت المشاكل داخل الأسر، فعشيق الأم لم يكن يقيم معها في المنزل، أما هذا الوافد الجديد الذي يقول إنه "أب" فهو يقيم في المنزل. وتقدم بعض هواة الحلول التلفيقية من أطباء النفس الذين أخذوا من العلم قشوره واستولى الأمل عليهم في إيجاد حلول سريعة لمثل هذه المشكلات، أي أن يكون كلا الطرفين متساوياً في العلاقة.

وصادف هذا القول هوى عند بعض الآباء الذين عانوا في طفولتهم من قسوة آبائهم عليهم، وتمت ترجمة تلك المساواة المزعومة بأن طالب بعض الآباء أبناءهم بأن ينادوهم بالاسم الأول. فإذا كان اسم الأب "مدحت" وكان اسم الابن "وليد" فالابن ينادي والده "يا مدحت" كما ينادي الأب ابنه "يا وليد".

إن الآباء الذين يفعلون ذلك ابتغاء رسم طريق للصداقة بينهم وبين الأبناء، ينسون أن الابن منذ أن تتفتح عيناه على العالم وهو يبحث عن الحدود التي لا يجب أن يتخطاها، ويحاول أن يتخطاها. إنه يعبث بأزرار الكهرباء وأنت تخاف عليه من أن تصعقه الكهرباء، وتمنعه من الاقتراب منها. وهناك أيضا لون من الاحترام العميق يجب أن يعرفه الابن ولا يتعداه. وسيحاول الابن أن يتعدى الحدود وسيجد الأب الحازم يقول" لا، هناك حدود".

إن الآباء الذين "يتسولون" الصداقة مع الأبناء بإغراقهم في الهدايا والتبسط معهم في الحديث، هؤلاء الآباء يصطدمون بحائط واضح جداً وهو حائط تمادي الابن في الشغب، والتهاون، وعدم الإقبال على العلم، وأخذ الحياة بمنطق المستهتر.

إن الأب يحصل على صداقة الابن بالحزم أكثر مما يحصل عليها بإطلاق الحبل على الغارب. فالأب الذي يلقي بلهجة حازمة الأوامر التي تنير الطريق أمام الابن هو الأب الذي يلجأ إليه الابن ليتلقى مشورته.

هذا اللون من الآباء هو الذي يستمتع بالفعل بالصداقة مع الابن.

إن الحزم الأبوي لا يؤذي شخصيات الأطفال على المدى البعيد، رغم أن الطفل قد يبدي بعض الامتعاض أو الضيق من الحزم. ولكن كل طفل يعلم في قرارة نفسه أنه طفل قليل الخبرة وأن أمنه وأمانه يعتمد على والديه.

لقد أثبتت التجارب النفسية أن الطفل يصبح عديم الانسجام مع المجتمع إذا ما كان والده سلبيًا غير حازم.

إن الابن يحب الأب الحازم لأنه ينال مع هذا الأب علاقة أكثر دفئًا ولطفًا. صحيح أن الحزم لا يتيح للابن فرصة أكبر من التدليل، ولكن الابن لا يوافق في أعماقه علي مسألة الصداقة مع الأب على طول الخط.

إن للابن أصدقاء من نفس عمره، يحبهم، ويلعب معهم، ويتشاجر معهم، ويدخل معهم في تنافس، ويهزم بعضهم ويهزمه بعضهم الآخر. والابن له خياله الخاص الذي يجعله، منذ العام السابع، شديد الرغبة في تحدي الأب وفي الرضوخ له أخيراً. وهو أيضا يطلب من والده أن يلعب دور القاضي الذي يستسمحه في بعض سلوكه والذي لا يوافق على البعض الآخر منه.

ومع نمو الأبناء فهم يحاولون دائمًا اكتشاف حدود ما سيسمح به الآباء، الأمر الذي يتطلب من الآباء القيام بتخفيض القيود تدريجيًا مع استمرار الحزم.

إنني لا أنسى أن ابني الشاب لم يكن مسموحًا له باللعب خارج المنزل أو في النادي لأكثر من السادسة مساءً عندما كان في التاسعة من العمر. وعندما دخل الجامعة وصار في الثامنة عشرة أصبح الميعاد المحدد لعودته هو الحادية عشرة، وليس في ذلك أدنى تزمت ولكنه الحزم الذي يوجب علي معرفة المكان الذي يذهب إليه.

إن الابن بذلك يتعلم كيفية إدارة دفة عمره تدريجيًا، بدلاً من أن يكون واحدًا من أولئك الذين يتخبط معهم أباؤهم ذات اليمين وذات الشمال، فمرة يطالبون أبناءهم بالصداقة

معهم، ومرة أخرى يفقدون الصبر لأن أبناءهم يسيئون السلوك. هؤلاء الآباء عليهم أن يستردوا الحزم مرة أخرى وأن يقيموا علاقة واضحة يكون للأب فيها دور التوجيه، وعلى الابن الطاعة.

وإذا شعر الآباء ببعض من الذنب بسبب قسوتهم أو تفجر غضبهم، فعليهم أن يقولوا لأنفسهم: "لا داعي للإحساس بالذنب، فالابن عليه أن يتحمل بعضًا من قسوة الأب، لأنه في المستقبل سيلتقي بمن يقسو عليه أو ينفجر عليه غضبًا من رؤسائه، وعليه أن يتعلم الانضباط وأن الحياة لا تسمح للأبناء أن يخرجوا منها ليكون كل واحد منهم ملكًا يحترمه الجميع، إذ إنهم يخرجون إلى الحياة ليندمجوا مع المجتمع الأوسع".

وعلى الأب ألا يفكر في الاعتذار للابن إذا ما انفجر غاضبًا، ذلك أن الأب لو اعتذر لابنه لكان من نتيجة ذلك أن الابن سيتجاوز الحدود مرة ثانية.

إن للابن حدودًا يجب أن يلتزمها، وذلك حتى نتجنب الوقوع في التوترات التي تنتج من إطلاق الحبل على الغارب.

وقد ينتقد الابن والديه لأصدقائه وقد يشكو للأصدقاء من "ضيق أفق الكبار". ولا بأس، فليفعل ذلك ولكن عليه أيضًا أن يطيع الوالدين.

إن الضوابط الأسرية هي التي تعطي الابن في شبابه فرصة الاندفاع إلى إنهاء دراسته وإتقان مهنة ما؛ ليستقل عن أسرته، حتى يبني هو أسرة جديدة، وهو سيحاول أن يفعل مع ابنه نفس ما فعله معه والده.

إن كل إنسان منا يحمل صورة والده في داخله، يتمرد عليها في مراهقته ويقلدها في نضجه.

وكل امرأة تحمل صورة أمها في داخلها، تتمرد عليها في مراهقتها وتقلدها في نضجها.

إن المناداة بالحزم مع الأبناء ليس معناها أن تحول المنزل إلى معسكر والأبناء إلى جنود، وأن يعيش المنزل في جو عسكري صارم.

لا. إن هذا ليس حزمًا، إنه زراعة للخوف في نفوس الأبناء حتى لا يقتربوا من الآباء.

إن بعض الآباء يحسون بالحيرة إزاء مواقف الحياة المختلفة ويختبئون خلف جدار مصطنع من القسوة. والسبب الأساسي في هذه القسوة هو أنهم لا يملكون القدرة على التفاعل مع الأبناء ويستريحون في الكسل عن القيام بمسئولياتهم تجاه الأبناء.

وهؤلاء الآباء يحصدون في النهاية أبناء لا يهتمون بهم في شيخوختهم.

إن الأبناء في الولايات المتحدة على سبيل المثال ينفصلون عن الآباء في عمر السابعة عشرة ويقال إن ذلك هو "الاستقلال المبكر"، ولكن الآباء، من الناحية العملية يتوقون في الشيخوخة إلى الإحساس بدفء الامتداد في الحياة، ولا يجدون الأبناء بجانبهم. ذلك أن الكبار قد تناسوا في شبابهم التعامل مع الأبناء بحزم لا بقسوة وتناسوا في شبابهم التفاعل مع الأبناء وفضلوا على ذلك "تسول" الصداقة مع الأبناء.

إن على الآباء الإقبال على الأبناء بحب وبحزم أيضًا.

وعلى الآباء عدم الاعتذار عن الانفجارات الصغيرة وعدم تسول الصداقة مع الأبناء، وذلك حتى لا تضرب رأسك أوان الشيخوخة في حائط الإحساس بالوحدة لأن ابنك لا يحس بك.

حتى لا تحول ابنك من

إمبراطور إلى ضفدعة

الوصول إلى الكمال لعبة مزدوجة الخداع.

الأب يقول لابنه: "إنني أفعل ذلك حتى تكون الإنسان الكامل الناضج".

والابن يقول لأبيه: "إنني أطالبك بأن تحقق كل مطالبي حتى تكون الأب الكامل الذي يستجيب لكل مطالب أبنائه".

والحقيقة الواضحة لنا جميعا أن الكمال البشري مسألة لم تتحقق في أرض الواقع أبدًا.

لم نجد أبًا قد وصل إلى الكمال في سلوكه مع أبنائه.

ولم نجد ابنًا قد تحقق الكمال في سلوكه مع المجتمع أو مع أسرته.

وليس معنى تقرير هذه الحقائق الواضحة أمامنا جميعًا – في أنفسنا وفي سلوكنا الشخصي _أن هناك إنسانًا يمكنه أن يتنازل عن الرغبة في الوصول إلى الكمال.

وحتى الإنسان الممتلئ باليأس قد يخدع كل من حوله بكلمات اليأس وهي تخفي في قلبها شعلة البحث عن أمل وشعلة من نفاذ الصبر ورغبة في الوصول إلى الكمال.

وكما يقول العالم النفسي الكبير، إريك برن، الذي كشف عن أجزاء كبيرة من سيناريو الحياة البشرية: "إن كل إنسان يولد وهو طيب ومحب للخير وصاحب قدرة على الارتفاع والسمو، ولكن أسلوب التربية بالقمع وصب الأبناء في قوالب هو الذي يحول الأبناء إلى ضفادع ترقص على أنغام الحضارة، وتصدر نقيق الإزعاج بالتمرد".

ولكن الدكتور هاريسون، تلميذ إيرك برن، يقول: "إنني أرى الإنسان على العكس مما يراه إيرك برن. إنني أراه يولد وهو يملك فكرة غريبة بعض الشيء عن نفسه. إن الطفل الصغير يرى نفسه ككائن دميم بين كبار يعنون بنظافتهم ويحاول أن يقلدهم ولكنه لا يستطيع، ويظل يحاول أن يكون نظيفًا كبيرًا مثل الكبار إلى أن يكبر، وهنا يكتشف أن الكبار يخفون داخل أناقتهم الإحساس بالضآلة. وهذا ما يجعلهم يبحثون عن الكمال دائمًا.

وليس من المهم أن نحدد ما هي وجهة النظر الأكثر صدقًا، لأن كلا منهما صحيح إلى حد كبير.

فالطفل الصغير برئ تمامًا، يصطاد الحب بعينيه الصافيتين وضحكته اللامعة وصوته الذي لا يحمل كلمات محددة ولكنه أكثر جمالاً من كل الأصوات.

والطفل الصغير شرس تمامًا، يرفس كأنه حصان جامح، ويصرخ بلا مبرر، ويقف أمامه الكبار حيارى لا يحسنون التصرف تجاه هذه "الكارثة" الصغيرة التي لا تملك القدرة على أن تشرح نفسها. وبعد ذلك يكف الطفل عن الصراخ وينام، ويهدأ جو الأسرة ونجد الأم تغمر وجه الطفل النائم بالقبلات، ونجد الأب وهو يربت على وجنتي الطفل بحنان.

إذن.. هناك مساحة من الكراهية تتضح لنا فجأة، وهذه المساحة تفصل بين الآباء والأبناء في بعض اللحظات، وتتبعها مساحة من الحب الفياض.

ونلوم أنفسنا نحن الكبار لأننا كرهنا الزواج والإنجاب في بعض المواقف عندما يتصرف الابن تصرفًا غير لائق، كما نلوم أنفسنا عندما نشعر بالذنب لأننا قسونا على الأبناء في بعض المواقف.

وبين "لوم النفس للكراهية الطارئة" وبين "لوم النفس للإحساس بالذنب" تمضي في بعض الأحيان حياتنا مع الأبناء وكأنها قطار سريع جدًا، لاهث جدًا، لا يتوقف عند محطات التفاهم العميق، بل غالبًا ما يتوقف عند لحظات الألم، وقليلاً ما يتوقف عند لحظات السعادة العميقة.

ولو أن الحضارة الغربية المعاصرة استطاعت أن تتفهم روح القرآن الكريم، كما تتمثل في قوله تعالى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(الآية ١٤ من سورة التغابن)

لو أن الحضارة الغربية المعاصرة فهمت هذا الكلام السماوي حق فهمه لما توقف

الإنسان عند لحظات لوم النفس للكراهية الطارئة بين الآباء والأبناء، ولما توقف الإنسان عند الإحساس العميق بالذنب عند القسوة في بعض الأحيان على الأبناء.

وليت الحضارة الغربية المعاصرة فهمت قوله تعالى:

(إِنَمآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ مَآ اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(الآيتان ١٥ و ١٦ من سورة التغابن)

وليتنا فهمنا أن المال والأبناء هما "إختبارات حياتية" يجب أن نتعايش معها بأن نفعل الصالح بالمال ونفعل ما يصلح حياة الأبناء، وأن نسمع للأبناء جيداً وأن نتفهم ظروفهم على قدر المستطاع، وأن ننفق الخير لا من المال فقط ولكن من عطاء الأحاسيس، وبذلك يصبح المال والأبناء كالأرض التي نحسن فلاحتها فتعطينا الثمار المرجوة.

لكن الحضارة المعاصرة تتعلم من التجربة والخطأ. ولا بأس، فلتتعلم من أخطائها ما يدميها ويجعل حزنها ممتداً أمامها كالأنهار المليئة بدماء الألم، فلسوف تعود في نهاية كل تجربة إلى ما فيه شفاء ورحمة حتى ولو لم تتعلمه، فإن التجربة والخطأ يدفعان بنا إليه كنتيجة نشفي بها أوجاعنا ونرحم بها أنفسنا بإصلاح أخطائنا.

إذن فمن الرائع أن نقيم وقاية بيننا وبين "شح النفس" فالبخل كما نعلم ليس بخل المال فقط، ولكن البخل الأكبر هو البخل في التفاعل من الأبناء والاندماج معهم في مشاريع مشتركة صغيرة، والصبر عليهم في أثناء أداء أي عمل، وتعليمهم الخطأ من الصواب بعاطفة منضبطة. ومع أن هذا هو أسلوب التعامل المثالي مع الأبناء، فإن هناك أيضًا لحظات ننفجر فيها غضبًا ويكون سلوكنا مع أبنائنا خاطئًا. وما دام الإنسان يغضب ويعود إلى هدوئه، فإن الابن يقدر ذلك.

وإذا كانت تربية الأبناء "اختباراً" لنا فإن كل إنسان يرغب في النجاح في أي اختبار أو امتحان يقابله.

والاطمئنان إلى أن الإنسان يؤدي كل ما عليه من مسئوليات هو الذي يخلق الثقة بأن النتيجة ستكون طيبة وناجحة إلى حد كبير.

أما الشك الدائم في النفس فيعرقل أداء الانسان لمسئولياته كأب، وقد يدفعه الشك إلى التأنيب النفسي وإلى كراهية وضع الإنسان المسئول عن آخرين هم الأبناء.

إن على الإنسان _الأب أو الأم _أن يتجاوز الإحساس بالذنب الذي يتأرجح فيه بين الإحساس بالألم النفسي وبين عقاب الأبناء، وعليه أن يسير على أرض الواقع.

ولنا أن نلحظ أن الآباء والأمهات الذين يهربون من مواجهة مسئولياتهم بتخصيص وقت للتفاعل واللعب والانسجام مع الأطفال ويستبدلون هذا الوقت بهدايا وألعاب وحلوى ونقود، هؤلاء الآباء والأمهات يعانون دائمًا من أن الأبناء يتحولون إلى أناس شديدي الأنانية والوصولية. إنهم يتعلمون الانتهازية من هؤلاء الآباء الهاربين من ممارسة مسئولياتهم.

إنك، عزيز الأب _وأنت أيضًا، عزيزتي الأم _لن تحقق الكمال في تربية ابنك لأنك، بدورك، إنسان لك ضعفك ولك قوتك. وابنك أيضًا لن يحقق الكمال الخلقي والنفسي والحياتي، إنما سيحقق بعضًا منه. هذا هو الواقع.

ولأن هذه هي صورة الواقع، فإن على الإنسان منا أن يأخذ نفسًا عميقًا ويقبل على التعامل مع أبنائه على أساس أنهم بشر وليسوا مجرد آلات عليها أن تستجيب للأوامر. وعلى الإنسان أن يقبل على أبنائه من دون خوف من وجود بعض المشاكل في حياتهم، لأن الحياة من دون مشاكل هي الموت بعينه.

إن أغنى أغنياء هذا الزمان له مشاكل مع أبنائه، وأفقر الفقراء له كذلك مشاكل مع أبنائه.

ولنتذكر أن أوناسيس، ذاك المليونير اليوناني الذي ملأ الدنيا لسنوات بمغامراته وعلى رأسها الزواج بجاكلين كينيدي، لم يكن عنده الوقت للتفاعل مع ابنته كريستينا، رغم أنه أغرقها بالثراء الرهيب ولذلك صارت كريستنا، كما يقول عنها أطباء النفس، "لا تعرف صورة واضحة لدور الرجل في الحياة"، ولذلك فهي تركب قطار الزواج ليتوقف بها كل عامين على الأكثر في محطة الطلاق.

وأفقر فقراء هذا العالم يعاني من مشاكل مع أبنائه. فعجوز قريتنا، فيما أذكر، كان فقيرًا معدمًا وكان يتسوَّل، وقد خرج ابنه الشاب يومًا بعد خطبة الجمعة وهو يحمل كيسًا كبيرًا من النايلون فيه عشرات القطع الفضية من النقود ونادى في الناس قائلاً: "لاتعطوا النقود لأبي لأنه يتسوَّل وهو قادر على شراء عشرة أفدنة". وأخذ عجوز قريتنا يصرخ قائلاً لابنه: "لم أعرف كيف أربيك". فقال له الابن: "لم يكن عندك وقت إلا للتسوُّل". وانزوى المتسوِّل العجوز في طرف القرية لأيام ثم هاجر إلى قرية أخرى ليتسوَّل فيها، وهاجر ابنه إلى قرية أخرى ليعمل فيها.

وبين مشاكل أكثر الناس ثراء قد نرى الفقر في الإحساس فى أثناء التعامل مع الأبناء، وبين مشاكل أكثر الناس فقرًا قد نرى أيضًا الفقر فى الإحساس فى أثناء التعامل مع الأبناء.

وفي المسافة الواقعة بين الأثرياء جداً والفقراء جداً قد نرى ثراء في الإحساس وقد لا نجد هذا الثراء.

إذن، فالمسألة أيضاً مسألة تربية لا علاقة لها بالثراء المالي، ولكنها في الأساس فن التعامل مع الأبناء بروح من التفاعل ومنحهم الإحساس بأننا نحن الكبار بجانبهم، ويمكننا أن نتفق معهم ويمكنهم أن يختلفوا معنا، ولكن ضمن حدود معينة.

إن إحساس الابن بأن والده حازم وحنون، وأن أمه حازمة وحنونة يؤكد إحساس الابن بثقته بنفسه وبالعالم المحيط به.

وقد لا يملك الأب المال الكافي لأن يشتري لابنه اللعب التي يلعب بها أقرانه، ولكن هذا الابن إن وجد الأب والأم بجانبه يحذرانه ويقيمان له أعماله، ويدلانه على الصواب والخطأ، فإن هذا الابن ينمو في هذا العالم وهو محب للحياة، وهو يعرف أيضاً كيف يعامل أبناءه عندما ينجب أطفالاً.

من المهم إذن أن تكون بجانب ابنك ولا تضعه في قالب من القهر وأن توجهه بحزم، وبذلك لا يخرج إلى العالم وهو ضفدعة بل يخرج إلى العالم أميراً سعيداً.

ومن المهم أن تكون بجانب ابنك حتى لا يعاني من الإحساس بأنه ضئيل، بل تساعده على النضج حتى يتعلم كيف يدير أمور حياته على نحو سويّ.

لا تخف من الحزم والقليل من القسوة فى معاملتك لأطفالك!

رفع القرن العشرين كلمة "الكبت" كسَوْط يلهب به ظهور الآباء والأمهات، حتى صارت التربية الغالبة في العصر الحديث أن تترك للابن الحبل على الغارب، فتربيه نيابة عنا مسلسلات التليفزيون والمربيات المستوردات من الخارج.

وقام علماء النفس بجريمة غامضة لم يعاقبهم أحد عليها، وهي جريمة توزيع كلمات صعبة مثل "احذر أن تصيب ابنك بالاكتئاب"، ومثل "إحذر أن يكون ابنك انطوائيًا"، ومثل "احذر من عقدة أوديب أو عقدة إلكترا".

وانهمرت في الصحف والمجلات وجهات نظر علماء النفس، وطبعًا كل ما يحكيه العلماء هو افتراضات نظرية وأبحاث في بعض الأساطير الإغريقية، ومحاولة ربط الواقع اليومي بدنيا متخيلة. وصار الواقع مختلفًا عن النظريات، وتم توزيع الشك بالعدل والقسطاس المستقيم على الآباء والأمهات.

وطبعًا كان أكثر الناس تأثرًا بما يقوله هؤلاء العلماء هم الآباء والأمهات الجامعيين، هؤلاء الذين وثقوا بالحضارة المعاصرة وارتبطوا بها، ونسوا أنها حضارة تغير جلدها ومعلوماتها كل خمس سنوات على الأقل، وأن الوصول إلى حقائق نهائية في مسائل تربية الأطفال لم يتفق عليها أهل العلم وأصحاب النظريات.

ولا يمكن أن أنسى أحد المؤتمرات الخاصة بتربية الأبناء حين وقف ذلك العالم النفسي الجليل والطبيب الذي عرف عنه نجاحه الباهر في التطبيق العلاجي الجماعي، وهو الدكتور كلود

شتيرن، وقال: "أيها الأطباء النفسانيون، قبل أن تتوغلوا في صحراء أعماق البشر وتطلقوا أوصافًا متعددة لأنواع الأمراض وتصنيفاتها، فليسأل كل واحد منكم نفسه سؤالاً جادًا ويجيب عنه لنفسه أيضًا، وستكون الإجابة واضحة، وهي أن أحدًا منا لم يعالج مريضًا نفسيًا من مرض ما، ولكن التفاعل الإنساني بين الطبيب ومن يظن نفسه مريضًا هو الذي يعيد المريض إلى المجتمع كإنسان يقبل بنفسه ويتقبله من حوله؛ ولا مانع من أن تمر أزمة بالإنسان ليعود مرة أخرى ليتخيل أنه مريض، ليعود إلى التفاعل، كإنسان، مع طبيبه. ومن بعد ذلك يلتحق الإنسان مرة أخرى بالمجتمع كإنسان يقبل نفسه ويتقبله المجتمع".

إذن فعلى الآباء الحساسين الذين تعلموا في الجامعات أن يعرفوا أن علم النفس قد ينجح أحيانًا وقد يفشل أحيانًا أخرى. ويكفي العالم كله أن أكبر جماعات التحليل النفسي في أوروبا، والتي لها فروع في معظم بلدان الدنيا _أعني الجماعة الفرنسية _اعترفت أن العلاج النفسي الكامل لم ينجح إلا بنسبة ١٢ بالمائة حسب تأكيد واحد من ألمع أساتذتها، وهو أستاذ عربي، أعني الأستاذ الدكتور أحمد فائق، أستاذ التحليل النفسي في كندا.

وعلى الآباء الحساسين أن يفرغوا آذانهم من تلال النصائح التي ألقاها سيل العلماء في آذانهم، وأن يلتفت كل أب إلى إحساسه الداخلي.

إن ابنك هو إنسان، وأنت تبتغي سعادته، وسعادته لن تأتي بحصاره في نمط معين من الحياة تفرضه عليه. وإلى هذا فإن سعادة الابن لن تأتي بإطلاق العنان له ليفعل كل ما يريده.

إن إحساسك الداخلي يقول لك إنك أنت أيضًا تحتاج إلى رعاية ابنك كما يحتاج ابنك لرعايتك، وإنك ستؤدب ابنك التأديب اللازم عندما تراه قد خرج عن الحدود، وإنك لن تعاقب نفسك بالإحساس بالذنب لأنك فعلت ذلك.

وعندما تنظر إلى غيرك من الآباء، عليك أن تتعلم من تجاربهم. فإذا نظرت إلى أب يكثر من الصراخ في وجه ابنه عند أدنى بادرة للخروج عن السلوك المطلوب، ستجد أن هذا الإبن يكرر للمرة المائة الخروج عن ذاك السلوك المطلوب، وهنا يمكنك أن تسأل نفسك لماذا لم يمتثل الابن لطاعة أبيه؟ والجواب هو أن كثرة التوبيخ وكثرة الإهانة للطفل وكثرة الصراخ في وجهه تجعله يسيء الظن بنفسه وبقدراته، ولذلك فإن الطفل يكرر الخطأ.

وقد تنتقل لرؤية أب آخر تزوره في منزله وهو يرى ابنه الصغير يحاول أن يضع شريط الفيديو في جهاز الفيديو بطريقة خاطئة، فيقوم بهدوء يقول لابنه: "أنت تريد أن تشاهد هذا الشريط، وأنت تتعجل في وضع الشريط، لذلك فإنك تضعه بطريقة خاطئة.. دعني أضع لك الشريط في الجهاز وراقبني، وبعد ذلك أخرج أنا هذا الشريط من مكانه

لتضعه أنت". إن الابن في هذه الحالة يراقب أباه وهو يؤدي عملية إدخال شريط الفيديو بشكل صحيح في جهاز الفيديو، وبعد ذلك يقلد الابن أباه في كل حركة من الحركات الصحيحة، وهنا يصفق الأب لابنه.

إن مثل هذا الأب قد نقل الخبرة بمنتهى الهدوء لابنه وراقب ابنه وهو يكرر الخبرة بمنتهى التشجيع.

وقد تنتقل إلى رؤية أب ثالث يأتي ابنه ليسأله عن كيفية خلق الله لهذا العالم، والأب مشغول بمراقبة مسلسل تليفزيوني تشبه قصته في تفاصيلها قصة الحب الأول للأب. إن هذا الأب قد يقول لابنه بعصبيته: ليس هذا هو الوقت المناسب للرد على مثل هذا السؤال. وقد يتصرف الأب بلون آخر من السلوك، كأن يقول لنفسه: "إن تذكارات قصة الحب الأولى لا تفيد الآن. لقد كانت مثل هذه القصة رائعة في وقتها، ولكني أعيش الآن قصة حب بمعنى أعمق، وهي قصة تعاوني مع زوجتي لتربية ابني"، وهنا يقوم الأب من مكانه أمام التليفزيون ويفتح دائرة معارف مبسطة، ويبدأ في الإجابة رابطًا بذكاء بين تفاصيل العلم المبسطة وبين آيات القرآن الكريم حول خلق العالم.

إن احترام الآباء للأبناء أمر أساسي ومهم. هذه هي الحقيقة النهائية التي يمكن أن نستخرجها من كل القواعد والنظريات التي ظهرت في النصف الأخير في القرن العشرين.

ولكن الاحترام لا يجوز له أن يتحول إلى ستار نخفي وراءه ضعفنا أو نهرب خلفه من ممارسة مسئوليتنا نحو الأبناء.

وليس جائزًا لنا أن نكبت غضبنا بدعوى أننا نخشى على الأبناء من الكبت فنعيش في حالة غيظ، ويعيش الأبناء في حالة استهتار.

كما أنه ليس جائزًا لنا أن نحول غضبنا إلى قسوة مبالغ فيها بإهدار إنسانية الأبناء. إن هذا الإهدار يجعل الأبناء في حالة من الرعب المستمر من الحياة، ويزرع في نفوسهم التشاؤم، ويلقيهم في أحضان الإحساس بفقدان القيمة والاعتبار.

إنني لا أنسى على الإطلاق وجه ذلك الشاب الذي كان والده يجلده كلما أخفق في سنته الدراسية. وكانت طريقة الجلد مستوردة من العصور الوسطى، إذ يرقد الابن على ظهره ويمسك الأب بساقي ابنه بين فخذيه ويبدأ الضرب العنيف على بطن القدمين. والغريب أن هذا الابن كان يحفظ الكتب الدراسية عن ظهر قلب، ولكن ما أن يدخل الامتحان ويمسك بورقة الإجابة حتى ينسى كل شيء تمامًا. وعندما صحبه والده مرة لاستشارة أحد الأخصائيين الاجتماعيين، سأله الأخصائي الاجتماعي. "ألا تعلم أن الدين

الإسلامي يوجب عليك أن تلاعب ابنك سبعًا وتؤدبه سبعًا وتصاحبه سبعًا وتترك له الحبل على الغارب من بعد ذلك؟" وتساءل الرجل بدهشة كيف نسي ذلك رغم أنه يحاول أن يطبق كل فروضه الدينية. وحاول الرجل أن يصاحب الابن، وأن يتخلى عن عادة تحفيظ ابنه للكتب الدارسية. وهنا جاز الابن بالنجاح كل امتحاناته حتى صار مدرسًا.

ولكن ما الذي جناه التلاميذ من هذا المدرس؟ لقد كان مدرسًا قاسيًا للغاية على زملائه، وكان موضع شكوى من طلابه لعنفه الزائد. أما هو فكان مدمنًا لقراءة أبواب الحظ في الصحف والمجلات، ولم تكن حياته سهلة على الإطلاق. فقد كان يخاف من أن يأخذ حقنة تلقيح ضد أي مرض، وكان يخاف من عبور الشارع وكان يخاف من قيادة سيارة. لقد حطم والده بالجلد القاسي إمكانية حياته بنظام وحيوية وإقبال على أداء العمل بمسئولية ناضجة. بل إن هذا الإنسان عندما تزوج كان يهرب من رعاية أولاده ويتساهل معهم كثيراً ثم يقسو فجأة.

إن والده ما زال في داخله يراقبه، وقد يجلده، ولذلك يعيش الحياة في حالة رضوخ شديد لرؤسائه وحاله قهر شديد لمرؤوسيه.

ولأن الأب لم يسمح لهذا الإبن أبدًا أن يعبر عن رأيه في أية مشكلة، كان هذا الإبن قاسيًا في التعامل مع زملائه.

وهناك نوع آخر من السلوك الأبوي بالغ القسوة، وهو أن يحاول الأب أن يترصد ابنه في كل أمور حياته، ويحاول أن يسيطر على الابن في كل لحظة من لحظات حياته. وهذا معناه أن الأب يرتدي جلد ابنه. وفي هذا تفريغ للابن من شخصيته، الأمر الذي يجعله إنسانًا غير مميز.

إن السيطرة ضرورية بلا جدال، ولكن بشرط أن نترك للابن فرصة جيدة لتكون له شخصيته الخاصة به لئلا يصبح شخصاً متسلطًا في الكبر.

إن مساحة السيطرة الأبوية يجب أن تكون ضيقة ومتميزة حتى تتيح للأبناء فرصة تكوين شخصية خاصة وذوق راق وإبداع فعال.

إن كل الدراسات الحديثة لمعظم العلماء الواقعيين مثل د. سبوك ود. برنو بيتلهايم وغيرهما، هذه الدراسات تتفق على ضرورة الحسم الحازم الواضح والدقيق مع الأبناء، وهذا ينتج أطفالاً أسوياء سعداء، وحياة أسرية يسودها السلام.

إن الأب المحب، الحازم الحاسم، المتسامح دون تزمت هو الأب الذي يعرف أن إحساسه يتجه إلى إنضاج ابنه بالتفاعل لا بالقهر، وبالتفاهم لا بالقسر، وبالحنان لا باللامبالاة.

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
الإصدارات الخاصة

62- بعض ما يمكن قوله.. أوراق ليست شخصية ..... محمود الوردانى

63- شخصيات وتجارب فى المسرح العربى..... رجـــاء النقـــاش

64- الحركة العمالية فى مصر..... د. رؤوف عباس

65- مواقيت التعـــرى..... هدرا جرجس

66- سميـــر عبد الباقـــى.. طفل السبعين فى عيون الآخرين.....
مجموعة من الكتـــاب والباحثـــين

67- مدخل فى الموسيقى..... محمد قابيل

68- ثومـــة حكاية فيلم لم يكتمل ..... الأمير أباظة

69- بوابة جبر الخاطر ..... محمد مستجاب

70- الفـــن وأحـــواله ..... أحمد فؤاد سليم

71- الصعيدى والصعيديات..... عدلى رزق الله

72- الزحـــام ..... يوسف الشارونى

73- قصة السد العالى..... طاهر أبو فاشا

74- المسرح الإقليمى.. مسرح المستقبل ..... عبد الغنى داود

74- المسرح الإقليمى.. مسرح المستقبل ..... عبد الغنى داود

75- رءوف عبـــاس.. المؤرخ والإنسان ..... مجموعة كتاب

76- فن الحياة مع المراهق..... د. بينجامين سبوك - تحرير : منير عامر